الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولاي الطاهر – سعيدة-
كُلية الآداب واللّغات والفنون
قسم: اللغة والأدب العربيّ

بحث مقدّم لنيل شهادة ليسانس في اللسانيات العامة
موسوم ب :

المدرسة الأندلسيّة
وأثرها في الدّرس النّحويّ

إعداد الطّالبتين:
- شارف سهيلة
- تواتي عربيّة

إشراف الأستاذ:
د. عجّال لعرج

السنة الجامعية: 1438 /1439ه
2017/2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد:

إلى الوالدين الكريمين.

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى أهلي وعشيرتي.

إلى من قاسمتني هذا البحث.

إلى أساتذتي.

إلى زملائي وزميلاتي.

إلى الشموع التي تحترق لتنير عقل الآخرين.

إلى كل من علمني حرفا.

إلى 257 روح

إلى ضحايا الطائرة العسكرية رحمهم الله و أسكنهم فسيح جنانه و ألهم ذويهم الصبر و السلوان .

أهدي هذا البحث المتواضع.

شارف سهيلة

إهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد

إلى الوالدين الكريمين.

إلى إخوتي أخواتي:

عبد القادر، رشيد، ضريبة، أسماء،زهرة.

إلى من قاسمتني هذا البحث صديقتي سهيلة.

إلى صديقاتي:هدى، رقية، عليا، شيماء، هدى، سعاد.

إلى 257 روح

إلى ضحايا الطائرة العسكرية رحمهم الله و أسكنهم فسيح جنانه و ألهم ذويهم الصبر و السلوان .

تواتي عربية

شكر وتقدير

"كن عالما .. فإن لم تستطع فكن متعلما ، فإن لم تستطع فأحب العلماء ،فإن لم تستطع فلا تبغضهم"

بعد رحلة بحث و جهد و اجتهاد تكللت بإنجاز هذا البحث، نحمد الله عز وجل على نعمه التي منّ بها علينا فهو العلي القدير، كما لا يسعنا إلا أن نخص بأسمى عبارات الشكر والتقدير للدكتور والأستاذ المشرف"عجال لعرج" لما قدمه لنا من جهد و نصح طيلة هذا البحث.

كما نتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير للأستاذ والأخ "شارف محمد" لما قدمه لنا

من نصح ومعرفة طيلة انجاز هذا البحث.

كما نتقدم بالشكر الجزيل لكل من أسهم في تقديم يد العون لإنجاز هذا البحث، و نخص بالذكر أستاذتنا الكرام الذين أشرفوا على تكوين هذه الدفعة

كما لا ننسى أن نتقدم بأرقى و أثمن عبارات الشكر و العرفان إلى القائمين على قسم اللغة العربية.

إلى الذين كانوا عونا لنا في مشوارنا الجامعي أساتذتنا الكرام فلهم منا كل الشكر والتقدير.

مقدمة

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وقد تميّز العرب بلغتهم الفصيحة، لما عرفوا به من البداهة والفصاحة، فلم يكونوا بحاجةٍ إلى أيّ نوعٍ من التّقعيد، وقد استمرّ ذلك فترة من الزّمن، إلى أن حدثت أمورٌ جعلت من الضّروريّ وضع بعض القواعد والأسس، التي تقوّم اللّسان العربيّ من اللّحن، الذي بدأ ينتشر في أوساط العامّة.

من هنا جاءت الفكرة لدى الخليفة عليّ بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – فأوكل المهمّة إلى أبي الأسود الدّؤليّ - على الرّغم من اختلاف الرّوايات في ذلك - غير أنّ ما يهمّنا هنا هو أنّ هذا الأخير قد قام بالمهمّة فعلاً، عبر بوضع اللّمسات الأولى للنّحو العربيّ، بغية الحفاظ على اللّغة العربيّة، بعدما اختلط العرب بغيرهم من الموالي، الذين دخلوا في دين الإسلام.

وقد مرّ الدّرس النّحويّ العربيّ بمراحل، وأطوار متعدّدة، غير أنّه ظهر أوّل ما ظهر بالبصرة، من خلال جهود تلامذة أبي الأسود، وغيرهم من القُرّاء، إلى أن تمّ ذلك على يد سيبويه صاحب "الكتاب"، كما عرفت الكوفة هي الأخرى جهوداً نحويّة، كان أبرز أعلامها الكسائيّ والفرّاء وتلامذتهما.

ثمّ ظهرت بعد ذلك المدرسة الأندلسيّة، حيث عرف المغرب والأندلس جهوداً متميّزة، في تطوّر الدّرس النّحويّ، وسنقتصر هنا على جهود الأندلسيّين النّحويّة، والتي ظهرت بوادرها منذ عصر الولاة، وذلك بفضل تلك الرّحلات العلميّة، التي كان يقوم بها القُرّاء، والمؤدّبون، وطلبة العلم بصفة عامّة.

وهذا ما دفعنا إلى محاولة إبراز تلك الجهود النّحويّة لدى روّاد هذه المدرسة، وتتبّع المراحل التي مرّت بها، إضافة إلى الدّوافع، التي ساعدت على بناء مدرسة نحويّة أندلسيّة، مستقلّة عن مثيلاتها في المشرق العربيّ، عبر الحديث عن تشجيع الحكّام للمؤدّبين، وكلّ من له رغبة في النّهوض بالعلم، وإحياء الثّقافة العربيّة بشتّى ربوع الأندلس، ممّا خلق نوعاً من الحيويّة، أثّرت إيجاباً على مسار الدّرس النّحويّ بقرطبة وغيرها من الحواضر، وساعد على وضع القواعد والأسس لتلك المدرسة.

ولعلّ من الدّوافع التي شجّعتنا على اختيار الموضوع ما يلي:

- الرّغبة في معرفة جهود أصحاب المدرسة الأندلسيّة في المجال النّحويّ.

- البحث عن علاقة الحكّام في الحواضر الأندلسيّة بالحركة الأدبيّة والثّقافيّة، وتشجيعها.
- التّعرّف على المنهج المتّبع من قبل روّاد المدرسة النّحويّة الأندلسيّة.
- البحث عن الرّوافد، التي استقى منها هؤلاء منهجهم المذكور.
- محاولة التّعريف بأبرز أعلام المدرسة النّحويّة الأندلسيّة

انطلاقا من ذلك، يمكن طرح الإشكالية التّالية:

- ما هي جهود الأندلسيّين في سبيل تأصيل مدرسة نحويّة مستقلّة؟

ولتحقيق ذلك حاولنا الإجابة على التّساؤلات التّالية:

- ما هي بوادر ظهور مدرسة نحويّة أندلسيّة؟
- ما علاقة الحكّام بالحياة الثّقافيّة في تلك البقاع؟
- هل تأثّرت المدرسة النّحويّة الأندلسيّة بالمدرسة البصريّة أم الكوفيّة؟
- من هم أشهر أعلام المدرسة النّحويّة الأندلسيّة؟

وتصبو هذه الدّراسة إلى تحقيق أهدافٍ، من بينها التّعرّف على روّاد المدرسة النّحويّة الأندلسيّة، منذ عصر الولاة، مروراً بعهد الخلافة، وملوك الطّوائف، والمرابطين، إلى غاية عهد الموحّدين، ولا نزعم أنّنا سنأتي على ذلك مختلف الجهود النّحويّة عبر هذه المرحلة الطّويلة، بل فقط عبر إشارات لأهم أعلام الدّرس النّحويّ، وكذا البحث عن علاقة هؤلاء بنظرائهم من البصريّين والكوفيّين، وحتّى البغداديّين، وهل كان تأثرهم بهؤلاء، أم بأولئك، وما مدى مدارستهم لكتاب سيبويه، عبر الشروح، وشروح شواهده، والتعليقات عليه، وغير ذلك ممّا يشير إلى مكانته لدى روّاد المدرسة الأندلسيّة، وإعجابهم به.

وقد تمّ تقسيم البحث إلى مقدّمة ومدخل وفصلين، جاءت كما يلي:

المدخل:

ركّزنا فيه على الأسباب التي أدّت إلى ظهور بوادر الدّرس النّحويّ عند العرب، وذلك بالحديث عن جهود أبي الأسود الدّؤليّ، والرّوايات التي وردت في ذلك، مرورا بأشهر نحاة البصرة، مركّزين في ذلك على الخليل ابن أحمد، وسيبويه، هذا الأخير الذي يعتبر أشهر نحاة هذه المدرسة.

الفصل الأوّل: وقد جاء مقسّماً إلى ثلاثة عناوين كما يلي:

أوّلًا: نشأة المدرسة النّحويّة في الأندلس:

ذكرنا فيه طبقة المؤدّبين، إضافة إلى تشجيع الحكّام، وذلك قبل الحديث عن رحلات الأندلسيّين إلى المشرق، وكذا رحلات المشارقة إلى الأندلس، وذكر نموذج من المناظرات، التي كانت تجري في المجالس.

ثانياً: دوافع التّأليف النّحويّ في الأندلس:

تحدّثنا فيه عن بعض الدّوافع، التي ساعدت على ذلك، ومن بينها: ظهور اللّحن في أوساط العامّة والخاصّة، تماماً كما ظهر اللّحن في القرن الأوّل، وكذا الحديث عن محاولة الاستقلال الثّقافيّ عن المشرق، بالتّأصيل لمدرسة نحويّة أندلسيّة، أمّا الدّافع الثّالث فتمثّل في محاولتهم شرح الكتب البصريّة والكوفيّة، وتبسيطها، ومن أشهرها الكتاب لسيبويه.

ثالثاً: المدرسة الكوفيّة وأثرها في النّحو الأندلسيّ

تم التطرّق فيه إلى ذكر أثر المدرسة الكوفيّة في نظيرتها الأندلسيّة، وذلك خلافاً للمدرسة البصريّة، التي كانت متشدّدة في بعض المسائل، ومنها الرّواية، والقياس، بينما كان الكوفيّون أكثر تسامحاً في ذلك، وقد تشابه الكوفيّون والأندلسيّون في بعض المسائل منها: كثرة الرّواية عن العرب، الابتعاد عن التّأويل، الجمع بين النّحو، وغيره من الفنون

الفصل الثّاني: وجاء مقسّماً إلى خمسة عناوين كما يلي:

المبحث الأوّل: شروح الكتاب وشواهده في الأندلس

المبحث الثّاني: شرح الأعلم الشّنتمري للكتاب، وشواهدِه

المبحث الثّالث: ابن مضاء وثورته على النّحاة:

المبحث الرّابع: ابن عصفور الإشبيليّ

المبحث الخامس: ابن مالك الأندلسيّ

وقد استعنّا بالمنهجين التّحليليّ، والوصفيّ، حسب طبيعة البحث، وذلك في وصف جهود أصحاب المدرسة النّحويّة في الأندلس، وتحليل بعض المسائل التي تمّ ذكرها. والتي كانت – في أغلبها – مستمدّة من المدرستين البصريّة والكوفيّة. مع ذكر بعض الشّروح،

التي دارت حول "كتاب سيبويه"، إضافة إلى شروح الشّواهد، والتّعليقات والنّكت، سيّما لدى الأعلم الشّنتمريّ

ويعتبر هذا البحث مكمّلاً للدّراسات السّابقة، والتي منها:

1 - حفيظة، يحياوي، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي.

2 - درين، محمد بن عمار، تأثير الكوفيين في نحاة الأندلس.

3 - ربيح عمّار، ابن مضاء، ثورة في الفقه ... ثورة في النّحو

4 - فاطمة رزاق، منهج السّهيليّ في الدّرس النّحويّ.

5 - سميرة جداين، الشّاهد النّحوي، لدى نحاة الأندلس.

وقد اعتمدنا في إنجاز هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع، نذكر منها:

"الكتاب" لـ"سيبويه"، وطبقات النّحويّين واللّغويّين، لـ"الزّبيديّ"، والنّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفيّ من لفظه، وشرح أبياته وغريبه، لـ"الأعلم الشّنتمريّ"، وتنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب، لـ"ابن خروف الإشبيليّ"، والمقرّب ومعه مُثُلُ المقرّب، لـ"ابن عصفور الإشبيليّ"، وإنباه الرّواة على أنباه النّحاة لـ"القفطيّ، وبغية الوعاة في تراجم اللّغويّين والنّحاة، لـ"جلال الدّين السّيوطيّ"، وتاريخ الأدب الأندلسيّ لـ"إحسان عبّاس"، والمدارس النّحويّة لـ"شوقي ضيف".

وقد واجهتنا بعض الصّعوبات المتعلّقة أساساً بتعدّد الآراء المتعلّقة بالموضوع، إضافة إلى عناء البحث عن المصادر المساعدة في البحث.

المدخـــل

كانت العرب في جاهليّتها تتكلّم على طبيعتها، كلاما سليماً خالياً من اللّحن، وذلك لما جبلوا عليه من الفصاحة والبلاغة، فقد كانوا أهل باديةٍ، محافظين على لغتهم العربيّة الأصيلة، على اختلاف لهجاتها، كما أنّهم كانوا ذوي حافظةٍ قويّةٍ، لأنّنا نجدهم يعتمدون على الرّواية الشّفويّة في نقل الأخبار والأشعار، وكان لكلّ شاعرٍ "راويةٌ"، يلزمه، ويروي عنه الأشعار، وقد حُفظ لنا من ذلك كمٌّ هائلٌ من الأخبار والخطب والأشعار، حتّى قيل إنّ "الشّعر ديوان العرب"، ومن أشهر الخطباء الجاهليّين، قسّ بن ساعدة الإياديّ، وأكثم بن صيفي التّميميّ، والحارث بن عبّاد.

وقد أشار "ابن جنّي" إلى كون أهل الوبر، - ويقصد بهم أصحاب البوادي – قد حافظوا على لغتهم السّليقيّة، لأنّهم لم يتأثّروا بالموالي والأعاجم، عكس أهل المَدَر (الأمصار والحواضر) الذين فشا فيهم اللّحن، نتيجة الاختلاط، وذلك تحت عنوان: "باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر":

«علّة امتناع ذلك ما عرض للّغات الحاضرة، وأهل المدر من الاختلال، والفساد، والخطل. ولو عُلِمَ أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر. وكذلك أيضا، لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها، وترك تلقّي ما يرد عنها»[1].

وعليه، فإنّ أهل البادية قد حافظوا على لغتهم العربيّة السّليمة، وكان كلامهم نابعاً من البيان الذي جُبلوا عليه، والفصاحةِ التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولم يكونوا بحاجة إلى تدوين القواعد حتّى يلتزموا بها، يقول الجرجانيّ:

«ثمّ إنّك لا ترى علماً هو أرسخَ أصلاً، وأبسقَ فرعاً، وأحلى جنىً، وأعذب وِرداً، وأكرم إنتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان، الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوَشْيَ، ويصوغ الحَلْيَ، ويلفظ الدّرّ، وينفث السّحر، ويَقري الشّهد، ويُريكَ بدائع من الزّهر، ويجنيك الحُلو من الثّمر، والذي لولا تحَفّيه بالعلوم، وعنايتُه بها، وتصويره إيّاها، لبقيت كامنةً مستورةً،

[1] - ابن جنّيّ، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمّد عليّ النّجّار، المكتبة العلميّة، د.ط، د.ت، ج2، ص: 5.

ولما استَبَنت لها يد الدّهر صورةً، ولاستمرّ السّرار بأهلَّتِها، واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء»[1].

وخلاصة حديث الجرجانيّ أنّ علم البيان من العلوم التي بها يستطيع المرء تمييز الكلام الجيّد من الرّديء، وهو مرادف للفصاحة التي كان يتميّز بها العرب.

وقد استمرّ الوضع كما هو عليه في العصر الإسلاميّ الأوّل، إذ كان العرب متمكّنين من لغتهم العربيّة التي لا تشوبها شائبةٌ، وقد كانوا أحرص عليها من أيّ شيء آخر، هذا ولم يظهر التّدوين بعد.

فقد كان القرآن الكريم، والحديث الشّريف، وغيرهما من العلوم، تعتمد على الرّواية الشّفوية، ومع ذلك فقد ظهرت بوادر اللّحن لدى البعض في خلافة عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه -، ومصطلح اللّحن في حدّ ذاته يحمل معنَيَين متضادّين، فـــ«هذا المصطلح نجده في قول عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - ، وهو يحثّ على تعلّم النّافع من العلوم، إذ يقول: "تعلّموا الفرائض والسّنّة واللّحن كما تتعلّمون القرآن".

قال أبو بكر بن الأنباريّ: "وحدّث يزيد بن هارون بهذا الحديث، فقيل له: ما اللّحن؟ فقال: النّحو. وقال ابن الأثير في النّهاية: "يريد: تعلّموا لغة العرب بإعرابها".

كما رُوي "إنّ القرآن نزل بلحن قريش" أي بلغتهم، وحديث عمر أيضا "أُبَيٌّ أقرؤنا، وإنّا لنرغب عن كثيرٍ من لحنه" أي لغته ... وعن حذيفة بن اليمان مرفوعاً قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - "اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين"»[2].

وهذا المعنى المذكور يشير إلى اللّغة أو النّحو، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[3]، وهو غير المعنى الثّاني؛ الذي يعني الخطأ في الإعراب، وهو اللّحن المنهيّ عنه، لأنّه يدلّ على أنّ القائل غير عالمٍ بنحو اللّغة العربيّة، يقول الأزهريّ: «(اللّحن) الخطأ في

[1] - الجرجانيّ، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص: 5 – 6.
[2] - القوزيّ، عوض أحمد، المصطلح النّحويّ، نشأته وتطوّره، حتّى أواخر القرن الثّالث الهجريّ، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرّياض، ط1، 1981، ص:9.
[3] - سورة محمّد، 30.

الإعراب، وبابه قَطَعَ، ويقال فلانٌ (لحّان) و(لحّانة) أيضاً أي يخطئ، و(التّلحين) التخطئة»[1].

فاللّحن - إذن - من الأمور التي لا تليق بالمتكلّم؛ كون ذلك يشير إلى ضعفه اللّغوي، وابتعاده عن اللّغة السّليمة، لدرجة أنّ العرب كانت لا تتسامح مع من يلحن في كلامه، والأمثلة على ذلك كثيرة.

يقول أبو الطّيّب اللّغويّ: «واعلم أنّ أوّل ما اختلّ من كلام العرب، فأحوج إلى التّعلم الإعرابُ، لأنّ اللّحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النّبي – صلّى الله عليه وسلم - فقد روينا أنّ رجلاً لحن بحضرته، فقال: "أرشدوا أخاكم" [وفي رواية"أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ"] وقال أبو بكرٍ - رضي الله عنه - : لَأَن أقرأ فأُسقِطَ أحبّ إلي من أن أقرأ فألحن»[2]

فاللّحن - كما قلنا – كان نتيجة انفتاح العرب على غيرهم، أو بتعبير آخر، يمكن القول إنّ اللّحن فشا بعدما دخلت الأمم المختلفة دين الإسلام، «ولم تزل العرب تنطق على سجيّتها في صدر إسلامها، وماضي جاهليّتها؛ حتّى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل النّاس فيه أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت فيه الألسنة المتفرّقة، واللّغات المختلفة، ففشا الفساد في اللّغة والعربيّة، واستبان منه في الإعراب الذي هو حليها، والموضح لمعانيها؛ فتفطّن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام النّاطقين من دخلاء الأمم، بغير المتعارف من كلام العرب»[3].

والأخبار المتعلّقة باللّحن كثيرةٌ في التّراث العربيّ، وهي تدلّ على أنّ بعض العرب قد أصابهم شيءٌ من ذلك، للأسباب المذكورة؛ من ذلك مثلاً ما يلي:

«مرّ عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – على قومٍ يسيئون الرّمي فقرَّعهم، فقالوا: إنّا قومٌ متعلّمين، فأعرض مغضباً، وقال: والله لخطأكم في لسانكم أشدّ عليّ من خطأكم في

[1] - الرّازيّ، محمّد بن أبي بكر، مختار الصّحاح، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، 1986، ص: 248.
[2] - اللّغويّ، أبو الطّيب، مراتب النّحويّين، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة، دط، د.ت، ص:5.
[3] - الزّبيديّ، أبو بكر محمّد بن الحسن، طبقات النّحويّين واللّغويّين، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص: 11.

رميكم، سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم – يقول: "رحم الله امرءًا أصلح من لسانه"»[1].

فالخليفة قد غضب من اللّحن، الذي وقع فيه هؤلاء، ولامهم على ذلك، أكثر من تقريعه لهم على سوء الرّمي، لشعوره بأنّ فساد الألسنة أخطر على المرء من أيّ شيءٍ آخر.

من هنا كان لزاماً على العلماء وضع القواعد التي تحفظ اللّغة من الشّوائب، وتبعد المتكلّمين بها عن اللّحن، ذلك أنّ هذا الأخير قد فشا حتّى في قراءة القرآن الكريم، ورواية الحديث الشريف، وكان البعض يروي الحديث ملحوناً.

فالبواعث كانت قويّة «بعضها قوميٌّ عربيٌّ، يرجع إلى أنّ العرب يعتزّون بلغتهم اعتزازاً شديداً، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفساد؛ حين امتزجوا بالأعاجم، ممّا جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها؛ خوفاً عليها من الفناء والذّوبان في اللّغات الأعجميّة. وبجانب ذلك كانت هناك بواعث اجتماعيّة، ترجع إلى أنّ الشّعوب المستعربة أحسّت بالحاجة الشّديدة لمن يرسم لها أوضاع العربيّة في إعرابها وتصريفها، حتى تتمثّلها تمثّلاً مستقيماً، وتتقن النّطق بأساليبها نطقاً سليماً»[2].

وقد روى الجاحظ أنّ من الخاصّة من لحَنَ في قراءة القرآن، وقد ذكر لحناً للحجّاج، رغم فصاحته المعروفة، فـــ«الحَجّاج كان يُضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة، وأحد الأربعة الذين اشتهروا بالفصاحة، وتجنّب اللّحن، والذين يتحدّث عنهم الأصمعيّ، فيقول: "أربعةٌ لم يلحنوا في جدٌ ولا هزل، الشّعبي، وعبد الملك بن مروان، والحَجّاج بن يوسف، وابن القرية، والحَجّاج أفصحهم»[3]. وقد ذكر الجاحظ شيئاً من ذلك؛ حيث قال: «وروى أبو الحسن، أنّ الحَجّاج كان يقرأ : "إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمُونَ مُنْتَقِمُون"»[4].

[1] - الحمويّ، ياقوت، معجم الأدباء، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1993، ج1، ص: 16-17.
[2] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت، ص: 12.
[3] - سالم مكرم، عبد العال، القرآن الكريم، وأثره في الدّراسات النّحويّة، المكتبة الأزهريّة للتّراث، د.ط، د.ت، ص: 58.
[4] - الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج2، ص: 218.

وإذا رجعنا إلى كتاب "البيان والتّبيين"، نجد الجاحظ قد تحدّث فيه عن اللّحن، وعقد لذلك بابًا، ذكر فيه بعض الرّوايات، التي تشير إلى ذيوع اللّحن وسط العامّة والخاصّة على السّواء، وقد مرّ بنا ما ذكره بخصوص الحَجّاج، وهو أفصح العرب، وسنورد الآن خبرًا يتعلّق باللّحن، ولكن في غير القرآن.

يقول: «قال بعضهم: ارتفع إلى زياد رجلٌ وأخوه في ميراث، فقال: إنّ أبونا مات، وإنّ أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فأمّا زيادٌ فقال: الذي أضعت من لسانك أضرّ عليك ممّا أضعت من مالك. وأمّا القاضي فقال: فلا رحم الله أباك، ولا نيّح عظم أخيك ! قم في لعنة الله. وقال أبو شيبة قاضي واسط: أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم»[1].

ممّا سبق أمكننا القول إنّ اللّحن قد بدأ ينتشر في ربوع الخلافة الإسلاميّة من العرب، ومن غير العرب، ممّا أوجب على المهتمّين باللّغة أن يسنّوا قواعد لها، مستمدّة من أفصح اللّهجات العربيّة، مستشهدين في ذلك بالقرآن الكريم كما نزل، وذلك حتّى لا يقع المولّدون والأعاجم في هذا الوباء، الذي عدّه البعض من الأمور التي توجب العقوبة، لأنّها تفسد الألسنة، وسنشير فيما يلي إلى نشأة النّحو العربيّ، وبعض الرّوايات التي قيلت في هذا الشّأن، والتي تدور كلّها حول شخصيّة أبي الأسود الدّؤلي، رغم تناقضها في بعض الأحيان.

نشأة النّحو العربيّ

لقد نشأ النّحو في ظلّ الظّروف المذكورة آنفاً، خصوصاً بعدما اختلط العرب بغيرهم، وفشوّ اللّحن وسط البعض، فكان من الضروريّ وضع الضّوابط التي تضبط الكلام؛ حتّى لا تفسده الألسنة، وهناك رواياتٌ مختلفةٌ في وضع هذا العلم، ذكرنا بعضاً منها.

[1] - المصدر نفسه، ج2، ص: 222.

لكن قبل الخوض في أسباب وضع النّحو، نشير إلى المعنى اللّغوي، والمعنى الاصطلاحيّ له، فقد جاء في تهذيب اللّغة ما يلي: «قَالَ اللَّيْثُ: النَّحْوُ الْقَصْدُ نَحْوَ الشَّيْءِ، نَحَوْتُ نَحْوَ فُلَانٍ؛ أَيْ قَصَدْتُ قَصْدَهُ، قَالَ: وبَلَغَنَا أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ وَضَعَ وُجُوهَ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَ لِلنَّاسِ: انْحَوا نَحْوَهُ، فَسُمِّيَ نَحْوًا، وَيُجْمَعُ النَّحْوُ أَنْحَاءً. وَأَخْبَرَنِي الْمُنْذِرِيُّ، عَنِ الْحَرّانِيّ، عَنِ ابْنِ السِّكِّيتِ، قَالَ: نَحَا نَحْوَهُ يَنْحُوهُ، إِذَا قَصَدَهُ، وَنَحَا الشَّيْءَ يَنْحَاُه وَيَنْحُوهُ؛ إِذَا حَرَّفَهُ»[1].

فالنّحو - من جهة اللّغة - يعني القصد أو الطّريق، ومنه قولنا: اتّجهت ناحية كذا، ونحو المحلّ الفلانيّ، والمنحى بمعنى الاتّجاه، إلى غير ذلك من المشتقّات، أمّا من حيث الاصطلاح، فليس هناك فرق يذكر، لأنّ المعنى اللّغوي باقٍ، وهو القصد، غير أنّه مخصوصٌ بالكلام وتراكيبه.

وفي ذلك يقول ابن جنّي في "باب القول في النّحو" : «هُوَ انْتِحَاءُ سَمْتِ كَلَامِ الْعَرَبِ، فِي تَصَرُّفِهِ مِنْ إِعْرَابٍ وَغَيْرِهِ، كَالتَّثْنِيَةِ، وَالْجَمْعِ، وَالتَّحْقِيرِ، وَالتَّكْسِيرِ، وَالْإِضَافَةِ، وَالنَّسَبِ وَالتَّرْكِيبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لِيَلْحَقَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَهْلِهَا فِي الْفَصَاحَةِ، فَيَنْطِقَ بِهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، وَإِنْ شَذَّ بَعْضُهُمْ عَنْهَا، رُدَّ بِهِ إِلَيْهَا. وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ شَائِعٌ، أَيْ نَحَوْتُ نَحْواً، كَقَوْلِكَ: قَصَدْتُ قَصْداً، ثُمَّ خُصَّ بِهِ انْتِحَاءُ هَذَا الْقَبِيلِ مِنَ الْعِلْمِ»[2].

وقد استعمل اللّغويون العرب بعض المصطلحات الأخرى، والتي تشير في عمومها إلى النّحو وما إليه، وقد ذكرنا مصطلح اللّحن بمعناه الذي يشير إلى النّحو والبيان، وما إلى ذلك، وهو في الوقت نفسه مخالفٌ لمعنى اللّحن؛ بمعنى الخطأ والزّلل والتّحريف، ومن هذه المصطلحات نذكر: العربيّة والكلام، فقد جاء في الأثر عن أبي مسلم الخولاني، قال: قال عمر بن الخطّاب: تعلّموا العربيّة فإنها تشبّب العقل، وتزيد في المروءة، فالعربيّة – هنا - هي المعرفة بقوانين اللّغة العربيّة، حتّى لا يقع النّاس في اللّحن والخطأ، فهي قريبة المعنى من النّحو، لأنّ الغاية واحدةٌ، فمعرفة العربيّة تقتضي معرفة النّحو.

[1] - الأزهريّ، أبو منصور محمّد بن أحمد، تهذيب اللّغة، تح: عبد الله دردبش، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، د.ط، د.ت، ج5، ص: 252.
[2] - ابن جنّيّ، الخصائص، ج1، ص: 34.

أمّا مصطلح الكلام، فقد ورد على لسان أبي الأسود الدّؤليّ، وذلك في خبر أورده السّيرافيّ، عن بعض الفُرس الذين أسلموا، لكنّهم لم يتمكّنوا من العربيّة بعدُ، وهذا الرّجل الفارسيّ اسمه سعد «فمرّ سعدٌ هذا بأبي الأسود، وهو يقود فرسه، قال: مَالَكَ يا سعدُ لا تركب؟ قال: إنّ فرس ضالع [ظالع]، فضحك به بعض من حضره، قال أبو الأسود: هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام، ودخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة، فلو علّمناهم الكلام، فوضع باب الفاعل والمفعول [لم يزد عليه]»[1].

وفيما يخصّ واضع النحو، فإنّ الرّوايات تختلف في ذلك، فهناك من ينسب ذلك إلى أبي الأسود، وغيرُه ينسبه إلى "نصر بن عاصم اللّيثيّ"[2]، وقيل أيضا أنّ واضعه هو عبد الرّحمن بن هرمز[3]، لكنّ الرّاجح أنّ أوّل من فكّر في وضع علم يساعد العرب على حفظ لغتهم من الخطإ هو أبو الأسود.

«وتضطرب الرّوايات في وضع أبي الأسود للنّحو، فمنها ما يجعل ذلك من عمله وحده، ومنها ما يصعد به إلى عليّ بن أبي طالبٍ، إذ يروون عن أبي الأسود نفسه، أنّه دخل عليه - وهو بالعراق - فرآه مطرقاً مفكّراً، فسأله: فيم تفكّر؟ فقال له: سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربيّة، وأتاه بعد أيّام، فألقى إليه صحيفة فيها: "بسم الله الرّحمن الرّحيم. الكلام كلّه اسمٌ وفعلٌ وحرف»[4].

وهذه الحادثة تشير إلى أنّ أوّل من فكّر في ذلك هو الإمام عليّ – كرّم الله وجهه – وأوحى بذلك لأبي الأسود.

والرّواية السّابقة تختلف في عباراتها عمّا أورده "ابن الأنباري"، الذي ألمح في حديثه إلى نسبة النّحو إلى الإمام عليٍّ – كرّم الله وجهه-، من خلال السّياق المذكور، بمعنى أنّه ذكر لأبي الأسود نيّته في وضع شيءٍ يرجع إليه العرب؛ ليَصلُح به كلامهم، ولعلّ كلمة "نحو" جاءت من خلال ما ذُكر في الرّواية التّالية: «ثمّ ألقى إليّ الرّقعة، وبها مكتوبٌ

[1] - السّيرافيّ، الحسن بن عبد الله، أخبار النّحويّين البصريّين، تح: طه محمّد الزّينيّ، محمّد عبد المنعم خفاجيّ، مكتبة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، ط1، 1955، ص: 13 - 14.
[2] - المتوفّي سنة: 89 هـ.
[3] - المتوفّي سنة: 117 هـ.
[4] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 13 – 14.

"الكلام كلّه اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أُنبئ به، والحرف ما جاء لمعنى"، وقال لي: أُنح هذا النّحو، وأضف إليه ما وقع إليك، واعلم يا أبا الأسود، أنّ الأسماء ثلاثةٌ: ظاهرٌ، ومضمرٌ، واسمٌ لا ظاهرٌ ولا مضمرٌ، وإنّما يتفاضل النّاس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهرٍ ولا مضمرٍ، وأراد بذلك الاسم المبهم»[1].

ويورد "ابن الأنباري" أخبارا عن علاقة أبي الأسود بالإمام عليٍّ، - كرّم الله وجهه - ، وملازمته له، فقد كان من المقرّبين لديه، ممّا جعل النّاس تنسب وضع النّحو إلى أحدهما تارةً، وإلى الآخر تارةً أخرى، وهو ليس خلافاً كبيرًا؛ ما دام الإثنان عالمَيْن بالعربيّة، ويريدان إصلاح كلام المولّدين من الفُرس، وغيرِهم ممّن دخل الإسلام، وقد ذكرنا أن اللّحن كان قد بدأ في التّسلّل إلى الألسنة، يقول أبو الأسود: «وضعت بابَيْ العطف والنّعت. ثمّ بابَيْ التّعجّب والاستفهام، إلى أن وصلت إلى باب (إنّ وأخواتها) ما خلا "لكن"، فلمّا عرضتها على عليٍّ (رضي) أمرني بضمّ "لكن" إليها، وكنت كلّما وضعت باباً من أبواب النّحو عرضته عليه (ر) إلى أن حصّلت ما فيه الكفاية، قال: "ما أحسن هذا النّحو الذي نحوت"، فلذلك سمّي النّحو»[2].

وهناك روايات أخرى تذكر أنّ أوّل من وضع النّحو هو "نصر بن عاصم"، وقال آخرون: بل "عبد الرّحمن بن هرمز"، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، وهما قولان ضعيفان، لسببٍ بسيطٍ، وهو أنّ كِلَيْهِمَا تلميذٌ لأبي الأسود، وبالتّالي؛ فإنّهما قد أخذا منه ذلك، وربّما أضافا إليه بعض الأبواب.

«والصّحيح أنّ أوّل من وضع النّحو عليٌّ بن أبي طالبٍ (رض)، لأنّ الرّواياتِ كلَّها تُسند إلى أبي الأسود، وأبو الأسود يسنده إلى عليٍّ، فإنّه روي عن أبي الأسود، أنّه سُئل، فقيل له: من أين لك هذا النّحو؟ قال: لفقت حدوده من عليٍّ بن أبي طالب»[3]

كما يحكى أنّ أبا الأسود الدّؤلي«جاء إلى زيادٍ بالبصرة، فقال: إنّي أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وتغيّرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يقيمون به

[1] - ابن الأنباري، أبو البركات، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السّامرّائي، مكتبة المنار، الزّرقاء، ط3، 1985، ص: 18.
[2] - ابن الأنباري، المصدر السّابق، ص: 18 – 19.
[3] - ابن الأنباريّ، المصدر نفسه، ص: 21 - 22.

كلامهم؟ قال: لا، فجاء رجلٌ إلـى زيـادٍ، فقـال: أصـلح الله الأمير ! تـوفّي أبانـا، وتـرك بنـون. فقال زيادٌ: توفّي أبانا، وترك بنون ! ادع لي أبا الأسود. فقال: ضـع للنّـاس الـذي كنـت نهيتك أن تضع لهم»[1].

«أخذ أبو الأسود عن عليٍّ بن أبـي طالـب – عليـه السّـلام – العربيّـة، فكـان لا يُخـرج شيئا ممّا أخذه عن عليٍّ بن أبي طالب - عليه السّلام – إلى أحد، حتى بعث إليـه زيـادٌ: اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ينتفع النّاس به، وتُعرب به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك، حتّـى سمع أبو الأسود قارئـاً يقرأ: ﴿إنَّ الله بَـرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[2] [بالكسرة] فقـال: مـا ظننـت أنّ أمر النّاس صار إلى هذا، فرجع إلى زيادٍ فقال: أنـا أفعل مـا أمر بـه أمير المؤمنين فليبغنـي كاتباً لقناً، يفعل ما أقول»[3].

ممّا سبق، يمكننا القول: إنّ نشأة النّحو كانت في العراق، وقد تنبّـه الخلفـاء إلـى الزّلـل واللّحن الذي بدأ ينتشر على الألسن؛ نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، فكـان الاجتهـاد الذي أدّى إلى طلب الخليفة عليّ بن أبي طالب من أبي الأسود، أن يرسم له معالم هذا العلم.

النّحو في البصرة

لقـد نشـأ النّحـو - أوّل الأمـر - فـي البصـرة، وذلـك عبـر جهـود أبـي الأسـود الـدّؤليّ وتلاميـذه، فالبصـرة -إذن - كانـت مهـداً لهـذا العلـم الـذي سينتشـر عبـر مختلـف الأمصـار، ويعرف العديد من الأعلام، الذين سيستقون من هذا المَعين، الذي وضـع أسسه الأولى علمـاء من البصرة، أوّلهم أبو الأسود، الذي وضع نقط الإعجام.

يقول "أبو الطّيّب اللّغويّ": «قالوا: فجاء أبو الأسود إلى زيادٍ، فقـال لـه: اِبغنـي كاتبـاً يفهم عنّي ما أقول. فجيء برجلٍ من عبد القيس؛ فلم يرضَ فهمـه، فـأُتي بـآخر من قريشٍ، فقـال لـه: إذا رأيتنـي قد فتحت فمي بـالحرف، فـانقط نقطـة علـى أعـلاه، وإذا ضممت فمـي،

[1] - الزّبيدي، طبقات النّحوين واللغويّين، ص: 22.
[2] - سورة التّوبة، 3.
[3] - السّيرافي، أخبار النّحويّين البصريّين، ص: 12.

فانقط نقطة بين يديّ الحرف؛ وإذا كسرتُ فمي، فاجعل النّقطة تحت الحرف؛ فإن أَتبعت شيئاً من ذلك غُنّة، فاجعل النّقطة نقطتين؛ ففعل. فهذا نقط أبي الأسود»[1].

من هنا بدأ الاهتمام باللّغة العربيّة يزداد لدى علماء البصرة، من تلامذة الدّؤليّ، كعبد الرّحمن بن هرمز، ونصر بن عاصمٍ، وعنبسة الفيل، ويحي بن يعمر، وميمون الأقرن، وغيرهم من الأعلام الذين وضعوا اللّبِنات الأولى للنّحو العربيّ، فإذا كان الدّؤليّ قد نقط المصحف نقط إعراب، فإن هؤلاء نقطوه نقط إعجام (وهو وضع النّقاط على الحروف المتشابهة؛ للتّمييز بينها: كالجيم والحاء والخاء).

«فقد ذكر الرّواة أن الحَجّاج في ولايته على العراق (47 – 95 هـ) أمر نصر بن عاصمٍ - أو يحيى بن يعمر - بإعجام حروف المصحف لتمييز الحروف بعضها من بعض. ويروى أن ابن عاصمٍ كان أوّل من عشّر المصاحف وخمّسها»[2]

وإذا أردنا النّحو البصريّ بمعناه الدّقيق، وجدنا أوّل إرهاصاته لدى "أبي عبد الله ابن أبي إسحاقٍ الحضرميّ"، المتوفّي سنة 117 هـ «وهو ليس من تلاميذ "أبي الأسود"، ولكنّه من القُرّاء، ومن الملاحظ أنّ جميع نحاة البصرة الذين خلفوه يُسلَكون في القرّاء، فتلميذاه "عيسى بن عمر" و"أبو عمرو بن العلاء" وتلميذا عيسى: "الخليل بن أحمد" و"يونس بن حبيب"، كل هؤلاء من القرّاء. ويُكثر سيبويه في "كتابه" من التّعرّض للقراءات، وكأنّ ما كان بينها من خلافاتٍ في الإعراب، هو الذي أضرم الرّغبة في نفوس قرّاء البصرة؛ كي يضعوا النّحو وقواعده وأصوله، حتى يتبيّن القارئ مواقع الكلم في آي الذّكر الحكيم من الإعراب المضبوط الدّقيق»[3]

فالمدرسة البصريّة، كانت - من ناحية القواعد - متحرّزة بشكلٍ كبيرٍ، إذ كان أصحابها يرفضون كلّ ما يخالف القواعد التي بنوا عليها الكلام العربيّ الفصيح؛ الخالي من الشوائب، واعتمدوا على العلّة والقياس، فكلّ ما جاء موافقاً لهما، فهو مقبولٌ، وإلّا فإنّه شاذٌّ، ولا يمكن القياس عليه، لأنّه مخالفٌ لتلك القواعد، ولعلّ ذلك هو ما جعلهم يأخذون اللّغة

[1] - اللّغوي، أبو الطّيب، مراتب النّحويّين، ص: 10 – 11.
[2] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 17.
[3] - المرجع نفسه، ص: 18.

على بعض القبائل العربيّة دون البعض الآخر، وذلك اعتماداً على سلامة لغتها، وعدم تأثّرها بلغة أهل الحواضر.

فقد كان هؤلاء يرحلون إلى بوادي تهامة ونجد، ويأخذون اللّغة عن قبائل مثل تميمٍ وقيسٍ وأسدٍ وطيءٍ وهذيلٍ، وغيرها من القبائل التي لم تشُب لغتَها شوائب العمران، وقياساً على ذلك، فإنهم كانوا يأخذون من الشّعر ما يوافق القواعد التي رسموها، ويردّون ما يخالف ذلك، فالشّعر - في القبائل المحافظة على بداوتها - أسلم من الشّعر في قبائل أخرى؛ مسّها اللّحن أو الاختلاط.

ولن نذكر هنا جهود أصحاب المدرسة البصريّة، وحسبنا أن نشير إلى "الخليل بن أحمد الفراهيديّ"، الذي يعتبر من أشهر علماء البصرة، وهو معروفٌ بحذقه للعَروض، من خلال البحور الشّعريّة، التي قام باستخراجها، وتمييزها عن بعضها البعض، وبذلك أصبح من اليسير معرفة وزن أيّ قصيدة، فضلاً عن معرفة مواطن الزّحافات والعلل التي تصيب الأبيات، إضافة إلى أنّه واضع أوّل معجم عربيّ، مرتّب حسب مخارج الأصوات، ألا وهو "كتاب العين".

وإذا انتقلنا إلى ترجمته، ألفيناه ذلك العَلَم الزّاهد الذي لا همّ له سوى الحفاظ على اللّغة العربيّة من اللّحن، وقد ذكر ابن الأنباريّ ترجمته كما يلي:

« أبو عبد الرّحمن بن أحمد البصريّ الفرهوديّ الأزديّ، سيّد أهل الأدب قاطبةً في علمه وزهده، والغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النّحو وتعليله. وكان من تلامذة أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عنه سيبويه، وعامّة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلّها قال سيبويه: "وسألته" أو "قال" من غير أن يذكر قائله فهو "الخليل"،... وهو أوّل من استخرج علم العروض، وضبط اللّغة، وأملى "كتاب العين" على اللّيث بن المظفّر، وكان أوّل من حصر أشعار العرب»[1].

فالخليل – إذن – كان من الزّاهدين في متاع الحياة الدّنيا، وجعل همّته منصبّة على علوم اللّغة العربيّة، من خلال تأصيله لعلميّ العروض والقافية، وتأليفه لأوّل معجمٍ يعتمد

[1] - ابن الأنباريّ، أبو البركات، نزهة الألبّاء، ص: 45.

التّقليبات الصوتيّة، وقد أورد القفطيّ بعضاً من أخباره؛ من ذلك قوله: «وقال النّضر بن شُميل: أقام الخليل في خُصّ من أخصاص البصرة، لا يقدر على فَلس، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال؛ ولقد سمعته يقول: إنّي لأغلق عليَّ بابي، فما تجاوزه همّتي. وقال وهب بن جريرٍ: كان الخليل بن أحمد يكثر إنشاد بيت الأخطل: [الكامل]

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ[1]»[2].

والكلام عن "الخليل" يؤدّي بالضّرورة إلى الحديث عن تلميذه "سيبويه"، هذا الأخير الذي غطّت شهرته على من سبقه من البصريّين، وربّما يعود ذلك إلى حُسن تتلمذه على "الخليل"، وإلى إضافاته في مجال النّحو البصريّ، ولعلّ ذلك ما نجده من خلال المسائل المختلفة، والتي تعرّض لها في الكتاب.

فهو «عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث بن كعب بن عمرو بن علّة بن جَلد بن مالك بن أدد – ويكنّى أبا بِشرٍ وأبا الحسن. ومعنى سيبويه بالفارسيّة رائحة التّفاح. أخذ النّحو عن الخليل الفرهوديّ الأزديّ، ولازمه، وتتلمذ له. وقد كان أخذ شيئاً من النّحو عن عيسى بن عمر الثّقفيّ، وعن يونس، وأخذ عن غيرهما ... وعمل كتابه المنسوب إليه في النّحو، وهو ممّا لم يسبقه إليه أحد»[3].

ولعلّ ممّا اشتهر في حياة سيبويه، تلك المناظرة التي جرت بينه وبين الكسائيّ، النّحويّ الكوفيّ المعروف، وقد جرت تلك المناظرة في بغداد، أيّام هارون الرّشيد، «ووزارة يحيى بن خالد البرمكيّ ... وسأل يحيى أن يجمع بينه وبين الكسائيّ شيخ الكوفيّين، فنصحه يحيى ألّا يفعل، واجتمع بالكسائيّ عند البرامكة، أو في دار الرّشيد، أو في مجلس الأمين، على خلافٍ في ذلك، فلقيه - قبله - أصحاب الكسائيّ، ومنهم الأحمر، وهشام والفرّاء، فناظروه، وسألوه قبل أن يلقى الكسائيّ، كأنّما فعلوا ذلك؛ ليخضدوا شوكته

[1] - الأخطل، الدّيوان، شرح مهدي محمّد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1994، ص: 257.
[2] - القفطيّ، إنباة الرّواة على أنباه النّحاة، ج1، ص: 380.
[3] - القفطيّ، إنباه الرّواة، ج2، ص: 347.

قبل لقائه للكسائيّ، ثم واجه الكسائيّ، وناظره في المسألة المعروفة، وهي الزّنبوريّة: "كنت أظنّ أنّ العقرب أشدّ لسعةً من الزّنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إيّاها"»[1].

ورغم أن الجميع قد وافق الكسائيّ في مناظرته مع سيبويه، فإنّ ما يهمّنا هنا أنّ هذا الأخير كان من نحاة البصرة، بينما الكسائيّ من نحاة الكوفة، المعروفين بتسامحهم مع بعض القبائل العربيّة، التي رفض البصريّون الاستشهاد بكلامهم، وقد ألّف سيبويه كتاباً في النّحو، ظلّ - ولا يزال - مصدراً أساسيًّا في الدّرس النّحويّ.

«وقد حمله عنه تلميذه الأخفش الأوسط[2] سعيد بن مسعدة، وأذاعه في النّاس باسم "الكتاب" عَلَماً اختصّ به هذا المصنّف وحده؛ دون بقيّة المصنّفات في عصره، بحيث كان يقال في البصرة: "قرأ فلانٌ الكتاب"؛ فيُعلم أنّه كتاب سيبويه دون شكّ. وظلّ هذا الاسم خاصًّا به، دلالةً على روعة تأليفه وإحكامه. ونرى كثيرين من النّحاة وغيرهم ينوّهون به تنويهاً عظيماً»[3].

ولم يجِد سيبويه - في كتابه - عما سبقه إليه البصريّون، بل إنّه قد عزّز ما ذهبوا إليه، وثبّت أركان النّحو البصريّ، وذلك باعتماده على القياس في كلّ القواعد التي سنّها، مستشهداً بالقرآن الكريم، وكلام العرب الذي ارتضاه أسلافه من النّحاة البصريين.

يقول مثلاً في "باب الفاعل" الذي يتعدّى فعله إلى مفعولين: «وذلك قولك: أَعْطَى عَبْدُ اللهِ زَيْدًا دِرْهَمًا، وَكَسَوْتُ بِشْرًا الثِّيَابَ الْجِيَادَ. وَمِنْ ذَلِكَ: اخْتَرْتُ الرِّجَالَ عَبْدَ اللهِ، وَمَثَّلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾، وَسَمَّيْتُهُ زَيْدًا، وَكَنَّيْتُ زَيْدًا أَبَا عَبْدِ اللهِ وَدَعَوْتُهُ زَيْدًا إِذَا أَرَدْتُ دَعْوَتَهُ التِي تَجْرِي مَجْرَى سَمِيَّتِه ...»[4].

فصاحب "الكتاب" - في هذا الباب وغيره - يقيس الكلام قياساً؛ معتمداً على الشّواهد من القرآن والشّعر.

---

[1] - محمّد هارون، عبد السّلام، مقدّمة كتاب سيبويه، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص: 17 -18. والمسألة الزّنبورية مبسوطة في كتب التّراجم مثل: الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 68- 69 ، والقفطيّ، إنباه الرّواة، ج348/2.

[2] - المتوفّي سنة: 211 هـ.

[3] - شوقي، ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 59.

[4] - سيبويه، الكتاب، ج1، ص: 37.

الفصل الأوّل: المدرسة الأندلسيّة: نشأتها وخصائصها

توطئة

أوَّلاً: نشأة المدرسة النّحويّة في الأندلس

1 – طبقة المؤدّبين

2 – تشجيع الحكّام

3 – رحلات الأندلسيّين إلى المشرق

4 – رحلات المشارقة إلى الأندلس

5 - المناظرات

ثانياً: دوافع التّاليف النّحويّ في الأندلس

1 – ظهور اللّحن

2 – الرّدّ على المشارقة

3 – شرح الكتب وتبسيطها

ثالثاً: المدرسة الكوفيّة، وأثرها في النّحو الأندلسيّ

1 – كثرة الرّواية عن العرب

2 – الابتعاد عن التّأويل

3 – الجمع بين النّحو، وغيره من الفنون

توطئة:

تعتبر بلاد الأندلس من المناطق التي عرفت تواجد المسلمين، منذ فتحها على يد موسى ابن نُصير، سنة 92 للهجرة، ومنذ ذلك الوقت بدأت الشّخصيّة العربيّة تتبوّأ لها مكاناً بين أجناسٍ متباينةٍ، وأثبتت وجودها؛ ممّا انعكس إيجاباً على علاقتها بالقوط، وغيرهم من الأمم، وهكذا تمّ للمسلمين ما أرادوا، وفُتِحت الأندلس.

و«بعد انتهاء عهد الفتح يبدأ عهدٌ جديدٌ في تاريخ قصّة الأندلس، يسمّى عهد الولاة، الذي يبدأ من عام (95ه = 714م)، ويستمرّ مدة اثنين وأربعين عاماً، حيث ينتهي عام (138ه = 755م)، وعهد الولاة يعني أن حكم الأندلس - في هذه الفترة - كان يتولّاه رجلٌ يتبع الحاكم العامّ للمسلمين، وهو الخليفة الأمويّ، الموجود في دمشق، في ذلك الوقت»[1].

ورغم أنّ المسلمين قد وطّدوا أركان دولتهم في هذه البلاد، غير أنّهم لم يكونوا بالقوّة التي تسمح لهم بالتفرّغ للعلم والعلماء، ذلك أنّهم كانوا حديثي عهدٍ بها، وكان لزاماً عليهم صدّ الغارات الصّليبيّة، بين الحين والآخر، إضافةً إلى ترتيب الجوانب المتعلّقة بالحكم، والصّراع الدّائر في دواليبه، وإشراك جميع أطياف المجتمع الجديد، بما في ذلك البربر، الذين كانوا سندًا لهم في الفتح.

و«بدأوا يعلّمون النّاس الإسلام دين الفطرة؛ فقد أقبل عليه أصحاب الفطر السّويّة من النّاس عندما عرفوه، فاختاروه بلا تردّدٍ؛ فلقد وجد الإسبان في الإسلام ديناً متكاملًا شاملًا، ينظّم كلّ أمور الحياة، وجدوا فيه عقيدةً واضحةً، وعباداتٍ منتظمةً، وجدوا فيه تشريعاتٍ في السّياسة، والحكم، والتّجارة، والزّراعة، والمعاملات، وجدوا فيه تواضع القادة الفاتحين، وجدوا فيه كيفيّة التّعامل والتّعايش مع الأخ، والأب، والأمّ، والزّوجة، والأبناء، والجيران، والأقرباء، والأصدقاء، وجدوا فيه كيفيّة التّعامل مع العدوّ والأسير، ومع كلّ النّاس»[2].

أوّلًا: نشأة المدرسة النّحويّة في الأندلس

1 - طبقة المؤدّبين

[1] - السّرجانيّ، راغب، قصّة الأندلس، من الفتح إلى السّقوط، مؤسّسة إقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، الفسطاط، ط1، 2011، ص: 85.
[2] - المرجع نفسه، ص: 87.

يمكن القول إنّ ظهور بوادر الدّرس النّحوي في الأندلس كانت في عهد "عبد الرّحمن الدّاخل"، أي منذ قيام الدّولة الأمويّة بهذه البلاد، وذلك بانتشار طبقة المؤدّبين، الذين كانوا يعلّمون الصّبيان مبادئ العربية، الفقه والحديث، وغيرها من العلوم الضّروريّة.

«وكان تدريس الفقه، والحديث، والعربيّة، هو الشّيء الغالب على جماهير المدرّسين والمؤدّبين، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرقيّ في الغالب، ولذلك هاجرت كتب المشارقة إلى الأندلس بكثرةٍ، وكثرت رحلة الأندلسيّين إلى المشرق في طلب العلم، وكان الواحد منهم يشرّف بين بني قومه حين يروي عن شيوخ مصر، وبغداد، وغيرهما من بلدان المشرق»[1].

وسنشير فيما بعد إلى بعض الرّحلات من الاندلس وإليها، ذلك أنّ هناك من المشارقة من هاجر إلى الأندلس سواءً من بغداد مقرّ الخلافة، أو من سائر الأمصار. أمّا الآن فنكتفي بالإشارة إلى دور هذه الطّبقة في تعليم الطّلبة العلوم الضّروريّة، المتعلّقة بالقرآن الكريم؛ والتي منها النّحو العربيّ، الذي لا يزال يستقي من المَعين البصريّ والكوفيّ.

فـــ«لا نكاد نمضي في عصر بني أميّة بالأندلس (138 – 422 ه)، حتّى تنشأ طبقةٌ كبيرةٌ من المؤدّبين، الذين كانوا يعلّمون الشّباب في قرطبة، وغيرها من الحواضر الأندلسيّة، مبادئ العربيّة، عن طريق مدارسة النّصوص والأشعار، يدفعهم إلى ذلك حفاظهم على القرآن الكريم، وسلامة لغته وتلاوته، وبذلك كان أكثرهم من قرّاء الذّكر الحكيم، وكان كثيرٌ منهم يرحلون إلى المشرق، فيتلقّون هذه القراءات، ويعودون إلى موطنهم، فيرسمونها للنّاس بجميع شاراتها، كما يرسمون لهم العربيّة بمقوماتها اللغويّة»[2].

فالمؤدّبون كانوا ذوي ثقافةٍ متواضعةٍ، ومع ذلك فقد بذلوا مجهوداتٍ في الاتّصال بالمذهبَين البصريّ والكوفيّ، رغم أنّهم لم يكونوا متخصّصين في النّحو لوحده؛ فقد كان أغلبهم من القرّاء.

[1] - إحسان، عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة، دار الثّقافة، بيروت، ط2، 1969، ص: 38-39.
[2] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 288.

«ومنذ البداية، كان هؤلاء المؤدّبون قد اتّخذوا التّعليم حرفة يتعيّشون بها، دون أن يخالجهم شكٌّ في أنّ الأجر الذي يتقاضون حقٌّ من حقوقهم، بل لقد جرت العادة أن يقبض المؤدّب "جُعلًا" كلّما بلغ أحد تلامذته مرحلة الإتقان، والحذق لما تعلّمه، وقد عرف هذا الجعل في الأندلس بالحذقة»[1]

ومن المعقول أن يكون اعتماد المؤدّبين على كتب المشارقة؛ ذلك أنّهم كانوا حديثي عهد بهذه البلاد، فضلًا عن كونهم عرباً قادمين من المشرق، وهذا ما يفسّر تقليدهم ، الذي ليس عيبا مادام هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم المشارقة، فالقرآن واحد، والعلوم المتّصلة به واحدة، من تفسيرٍ، وحديثٍ، ونحوٍ، وما إلى ذلك.

وقد «وُسمت الحياة الثّقافيّة - منذ البدء - بالاعتماد على المشرق، والتّقليد لأهله، لأنّه كان أرقى حضارةً، وأوسع ثقافةً، وإليه يلتفت الأندلسيّون في تجارتهم، ويرونه منبع العلم والدّين، وموطن القداسة والحجّ. وقد تنمو روح المنافسة مع الزّمن بين المشرق والمغرب، ولكنّها لن تستطيع أن تكفل استقلال الأندلس في شؤون الحضارة والأدب، بل إنّها ساعدت على توسيع دائرة التّقليد»[2].

فحلقات المؤدّبين في المساجد - وغيرها من المجالس - كانت لها آثارها الإيجابيّة على الطّلبة من أبناء الخلفاء وغيرهم، للتّحصيل العلميّ، ومن الجدير بالذّكر أن هؤلاء المؤدّبين كانوا في حدّ ذاتهم طلبةً للعلم أينما وُجد، فقد يسافر المؤدّب من مدينةٍ إلى أخرى قصد الاستزادة من العلم الضّروريّ، كأن يقصد قرطبة – مثلًا - أو إشبيلية، أو غيرهما، وقد كانت الأولى أوفر حظًّا؛ كونها عاصمةً للخلافة.

و«لم يقتصر تحصيل هؤلاء المؤدّبين على تنقّلهم في المدن الأندلسيّة، بل سعَوا للقاء علماء المشرق المشهورين. وما إن حلّ القرن الثالث، حتى غدت رحلات الأندلسيّين هدفاً أو فريضةً ثقافيّةً، فلقي بعضهم مشاهير اللّغويّين في البصرة والكوفة، أمثال: "الأصمعيّ"،

[1] - ألبير حبيب، الحركة اللّغويّة في الأندلس، منذ الفتح العربيّ، حتّى نهاية عصر ملوك الطّوائف، الجامعة الأميركيّة، بيروت، أيّار 1965. ص: 28.

[2] - إحسان، عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة، ص: 39.

و"السّجستانيّ"، و"الكسائيّ"، وتوغّل بعضهم؛ فلقي الأعراب، وأخذ عنهم مباشرةً. وهكذا نرى أنّ حَمَلة النّحو واللّغة في الأندلس كانوا - غالباً -، تلامذةً للمشارقة»[1].

وهي حقيقةٌ لا مراء فيها؛ لأنّ بروز الشّخصيّة العربيّة في الأندلس كان في نفس الفترة التي عرفت مشاهير اللّغويين والنّحويّين العرب، الذين كانوا يعقدون مجالسهم في بغداد، وما حولها من الأقاليم التّابعة للدّولة العباسيّة، فليس بالغريب أن نجد من الأندلسيّين من يممّ وجهه شطر المشرق، طلباً للعلم بشتّى أنواعه.

وقد ذكر أصحاب التّراجم عدداً من هؤلاء المؤدّبين، الذين اهتمّوا بالتّأليف في القراءات، وكانت لهم مجالس علميّةٌ في حواضر الأندلس المختلفة، ولعلّ من أوائل هؤلاء المؤدّبين، "أبو موسى الهوّاريّ"، الذي ذكره الزّبيديّ بقوله:

«هو من أهل الفقه في الدّين، وأوّل من جمع الفقه في الدّين، وعلمَ العرب بالأندلس، ورحل في أوّل خلافة الإمام "عبد الرّحمن معاوية" – رضي الله عنه-، فلقي "مالكاً" ونظراءه من الأئمّة، ولقي "الأصمعيّ"، و"أبا زيدٍ الأنصاريّ" ونظراءهما، وداخل الأعراب في محالّها. ولمّا صدر عن سفره عطب بنحو تُدمير (مرسية)، فذهبت كتبه. أخبرني محمّد بن عمر بن عبد العزيز، عن بعض المشيخة قال: قصد شيوخ أهل أُسْتُجَّة أبا موسى يهنّئونه بقدومه، ويعزّونه بذهاب كتبه، فقال لهم: ذهب الخرج، وبقي ما في الدّرج»[2].

فأمو موسى الهوّاري كان قد استعان بحافظته، رغم فقده جميع الكتب التي كان قد حملها من المشرق، ولم يحزن مادام قد حفظ، ووعى ما أخذه عن العلماء المذكورين، وهو أمر ليس بالهيّن، خصوصا إذا كان من التقاهم وأخذ عنهم في بلادٍ بعيدةٍ، مع ما يصاحب ذلك من مشقّة السّفر، ومخاطر الطّريق، واستحالة نسخ الكتب المفقودة، وقد كان هذا شأن سائر المؤدّبين. حيث يروون ما قرؤوا وما تعلّموا على طلبتهم بعد عودتهم إلى ديارهم.

[1] - يوسف عيد، النّشاط المعجميّ في الأندلس، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص: 33.
[2] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 253.

وعلى كلٍّ، فإنّ للمؤدّبين فضلًا في تبلور المدرسة النّحويّة الأندلسيّة «وقد لعبت هذه الفئة من اللّغويّين دوراً بارزاً في العناية باللّغة، وفصاحة التّركيب، تعريفاً وتعليماً، كما فعل "جوديّ النّحويّ" (ت 289 ه)، حين أدخل كتاب "الكسائيّ"، وكما هو شأن "محمّد بن عبد الله الغازيّ"، الذي لقي في رحلته المشرقيّة "الرّيّاشيّ" و"أبا حاتمٍ"، وجلب إلى الأندلس علماً كثيرًا من الشعر، والغريب، والعربيّة، والأخبار، والخشنيّ الذي كان بصيراً بكلام العرب، وأحمد بن نعيمٍ، الذي جمع إلى العلم بالعربيّة تقدّماً في صناعة الشّعر، وحظًّا من البلاغة»[1].

وقد كان لهم مجالس للمناقشة حول بعض المسائل النّحويّة، سواءٌ بين بعضهم البعض، أو بينهم وبين تلامذتهم، وهي مجالس تنمّ عن الحسّ المشترك حول المسائل اللّغويّة، وطرق الاستشهاد لها أو عليها، من ذلك ما ذكره الزّبيديّ من أنّ "أبا محمّد الأعرابيّ" شكر "إبراهيم بن حجّاج" على شيء اصطنعه إليه، فقال: «تَاللهِ مَا سَيَّدَتْكَ الْعَرَبُ إِلَّا بِحَقِّكَ؛ فَقَالَ أَبُو الْكَوْثَرِ الْخَوْلَانِيُّ – وَكَانَ حَاضِراً - : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، الْعُلَمَاءُ عِنْدَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَ: "سَوَّدَتْكَ"، فَقَالَ: السَّوَادُ السَّخَامُ، يُخْطِئُونَ وَيُصْحِفُونَ ! فَانْتَهَرَهُ إِبْرَاهِيمُ، وَقَالَ: تَتَسَوَّرُ عَلَى الْأَعْرَابِ فِي لُغَاتِهِمْ ! فَكَتَبَ أَبُو الْكَوْثَرِ إِلَى يَزِيدِ بْنِ طَلْحَةَ بِالْخَبَرِ، فَأَجَابَهُ: الْمَعْرُوفُ: "سَوَّدَتْكَ" بِالْوَاوِ»[2]

ومن القرّاء المؤدّبين المشهورين "عبد الملك بن حبيب السّلميّ الأندلسيّ"، المتوفي سنة 238 للهجرة، والذي ذكره القفطيّ بقوله: «كان قد جمع علم الفقه، والحديث، وعلم الإعراب، واللّغة، والتّصرّف في فنون الأدب، وله تصانيف جمّةٌ في أكثر الفنون، منها كتابه في "إعراب القرآن"، وكتابه في "شرح الحديث"، إلى غير ذلك »[3]. وذكره الحُمَيدي بقوله: «فقيهٌ مشهورٌ، متصرّفٌ في فنونٍ من الآداب، وسائرِ المعاني، كثيرُ الحديث والمشايخ، تفقّه بالأندلس وسمع، ثم رحل، فلقي أصحاب مالكٍ، وغيرهم»[4].

[1] - مصطفى عليان عبد الرّحيم، تيّارات النّقد الأدبيّ في الأندلس، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1984، ص: 14-15.
[2] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 271-272.
[3] - القفطيّ، إنباه الرّواة، ج2، ص: 206.
[4] - الحُميديّ، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح: إبراهيم الأبياريّ، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ج2، ص: 447.

2 – تشجيع الحكّام:

منذ تولّي "عبد الرّحمن الدّاخل" الحُكم في الأندلس، ظهرت بوادر النّشاط في الحركة الثّقافيّة، وتطوّر ذلك مع من جاء بعده من أولاده وأحفاده، إلى أن جاء دور الخليفة "عبد الرّحمن النّاصر"، هذا الأخير الذي أظهر اهتماماً واسعاً بالعلم والعلماء، من خلال اعتنائه بالكتب والمكتبات، وتشجيعه لكلّ من أراد طلب العلم من سكّان قرطبة، وغيرها من الحواضر الأندلسيّة، وقد ساعده في ذلك طول مدّته في الحُكم.

«وحلّ القرن الرّابع الهجريّ، أيّام عبد الرّحمن الناصر (300 – 350 /913 – 961)، وابنه الحَكم المستنصر (350 – 366 /961 – 977)، والحاجب المنصور بن أبي عامر (392/1002)، فبلغت الأندلس ذروة المجد السياسيّ والثّقافيّ. وحاضرة قرطبة، ومعها الزّاهرة والزّهراء، أصبحت نموذجا لأرقى ما بلغته المدينة يومئذ في شكلها المادّيّ. هذا التّطوّر الحضاريّ، فرض تميّزاً واضحاً في نواحي العلم، ودخلت هذه العوامل الجديدة في صلب الحياة الثّقافيّة. وفي هذا العصر تمّ إنشاء أكبر مكتبة عرفتها الأندلس»[1]

وهذا التّشجيع، من لدن الخليفة "النّاصر"، قد أسهم في ازدهار الحياة الثّقافيّة والعلميّة بشكل ملحوظ؛ فقد أجرى الرّواتب على المهتمّين بالنّسخ، وهيّأ لهم الأجواء الملائمة لعملهم، حتى لا يفكّروا في غيره، وعليه يمكن القول إنّه قد أسهم في النّهوض بالعلوم.

فـ «في عهده -رحمه الله- ازدهر العلم والتّعليم بصورةٍ ملحوظةٍ، وقد اهتمّ كثيراً بمكتبة قرطبة؛ تلك التي كانت قد تأسّست قبل ذلك الوقت، فزاد كثيراً في حجمها؛ حتّى بلغ عدد الكتب فيها أربعمائة كتابٍ، وهو زمنٌ لم تظهر فيه الطّباعة بعدُ، وإنّما كانت عن طريق النّسخ اليدويّ، الذي كان وظيفة النّسّاخين، فإذا أراد واحدٌ من النّاس أن يمتلك كتاباً، ما عليه إلّا أن يذهب إلى نسّاخ؛ فيذهب النّسّاخ بدوره إلى مكتبة قرطبة، فينسخ له ما يريد»[2]

[1] - يوسف عيد، النّشاط المعجميّ في الأندلس، ص: 37.
[2] - السّرجانيّ، راغب، قصّة الأندلس، من الفتح إلى السّقوط، ص: 223.

وبعد موت الخليفة "عبد الرّحمن النّاصر"، خلفه ابنه "الحَكَم المستنصر"، والذي فاق والده من حيث الاهتمام البالغ بشؤون العلم والعلماء، بل إنّه كان في حدّ ذاته عالماً، وقد شهد عهده ازدهاراً للعلم والثّقافة، بشتّى أنواعها، سواءٌ في "قرطبة" أو في غيرها من المدن، ك"إشبيلية"، "طليطلة"، "المرية".

«وقد أنشأ "الحكم بن عبد الرّحمن" المكتبة الأمويّة، تلك التي تعدّ أعظم مكتبات العصور الوسطى على الإطلاق، وكانت تنافس مكتبة قرطبة، ومكتبة بغداد، وقد دفع آلاف الدّنانير لجلب أعظم الكتب إليها من كلّ مكانٍ في العالم، وكان له عمّالٌ وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض ومغاربها من بلاد المسلمين، ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاؤوا بكتاب في الفلك، أو الطبّ، أو الهندسة، أو غيرها من أيّ بلد غير إسلاميّ، ترجم على الفور، وضُمّ إلى المكتبة الأمويّة»[1].

وقد أثنى عليه كلّ من تعرّض للحياة الثّقافيّة في الأندلس، إذ لا يمكن الحديث عن خلفاء البيت الأمويّ في "قرطبة"، دون الوقوف على إنجازات "الحكم المستنصر"، فهذا المقّري مثلا في "نفح الطّيب"، يعدّد خصاله، ومن ذلك قوله:

«وكان محبًّا للعلوم، مكرماً لأهلها، جمّاعًا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله ... وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان – أنّ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعٌ وأربعون فهرسةً، وفي كل فهرسةٍ عشرون ورقةً، ليس فيها إلّا ذكر أسماء الدّواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقًا نافقةً جُلبت إليها بضاعةٌ من كلّ قطر»[2].

فإذا كان عدد الفهارس بهذا العدد، فلنا أن نتصور عدد تلك المؤلّفات المذكورة في الفهارس، وهذا دليلٌ على شغف الحكم بجمع الكتب. ويضيف المقّريّ – نقلا عمّن سبقه من المترجمين – أنّ هذا الخليفة قد أرسل إلى "أبي الفرج الأصفهانيّ" في طلب نسخةٍ من كتاب "الأغاني"، وأنّ هذا الأخير قد لبّى الطّلب، فظهرت نسخته بالأندلس، قبل ظهور الكتاب في المشرق.

[1] - السّرجانيّ، المرجع السّابق، ص: 228- 229.
[2] - المقّريّ، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ج1، ص: 385 - 386.

يقول: «وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالًا من التّجّار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتّى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب "الأغاني" إلى مصنّفه "أبي الفرج الأصفهانيّ"، وكان نسبه في بني أميّة، وأرسل إليه فيه بألف دينارٍ من الذّهب العَين، فبعث إليه بنسخةٍ منه، قبل أن يخرجه إلى العراق... وجمع بداره الحُذّاق في صناعة النَّسخ، والمهَرة في الضّبط، والإجادةِ في التّجليد، فأوعى من ذلك كلّه، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب، لم تكن لأحد من قبله، ولا من بعده»[1].

فكتاب "الأصفهانيّ" ما هو إلّا نموذجٌ واحدٌ من مؤلّفاتٍ عدّةٍ يكون الحَكَم قد أرسل في طلبها، لتضمّ إلى مكتبته. ومن الواضح أنّ الحَكم كان يغدق على العلماء؛ لكي يستجيبوا لطلباته المتعلّقة بالنُّسَخ الأولى من المؤلّفات، بل أكثر من ذلك.

فـــ«كثيراً ما كان الحكم يتجاوز حدّ اقتراح الموضوع على المؤلّف؛ فيشاركه، أو يرسم له طريقة تقسيمه، كما فعل مع الزُّبيديّ عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً في طبقات النّحويّين، وعرّفه المنهج الذي يريده في تأليف الكتاب»[2].

وأبو بكر الزّبيديّ (316 – 379 ه – 928 – 989 م) من مشاهير علماء اللّغة والنّحو بالأندلس، في القرن الرّابع الهجريّ، وكتابه المذكور هو "طبقات النّحويّين واللّغويّين"، الذي يقول في مقدّمته:

«وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَكَمَ الْمُسْتَنْصِرَ بِاللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لِمَا اخْتَصَّهُ اللهُ بِهِ، وَمَنَحَهُ الْفَضِيلَةَ فِيهِ؛ مِنَ الْعِنَايَةِ بِضُرُوبِ الْعُلُومِ، وَالْإِحَاطَةِ بِصُنُوفِ الْفُنُونِ، أَمَرَنِي بِتَأْلِيفِ كِتَابٍ يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ مَنْ سَلَفَ مِنَ النَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ مَنْ تَلَاهُمْ مِنْ بَعْدُ، إِلَى هَلُمَّ جَرًّا، إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، وَأَنْ أُطْبِقَهُمْ عَلَى أَزْمَانِهِمْ وَبِلَادِهِمْ؛ بِحَسَبِ مَذَاهِبِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَمَرَاتِبِهِمْ، وَأَذْكُرَ مَعَ ذَلِكَ مَوَالِدَهُمْ، وَأَنْسَابَهُمْ، وَمُدَدَ أَعْمَارِهِمْ، وَتَارِيخَ وَفَاتِهِمْ، عَلَى قَدْرِ الْإِمْكَانِ فِي ذَلِكَ، وَبِحَسَبِ الْإِدْرَاكِ لَهُ ...»[3]

[1] - المقّريّ،المصدر السّابق، ج1، ص: 386.
[2] - إحسان، عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة، ص: 70.
[3] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 17.

والحقيقة أن الكّلام عن "الحَكَم المستنصر" يطول، لو تتبّعنا بعض إنجازاته، التي تخدم العلم والعلماء، وذلك على الرّغم من بعض منتقديه، الذين عابوا عليه صرف أموالٍ كثيرةٍ في سبيل تحصيل الكتب، ممّا جعله ينشغل عن أمور أخرى أهمّ، تخص الدّولة الإسلاميّة، يقول "حسين مؤنس":

«ولم يكن "الحَكم" مجرّد حاكم يعطف على العلماء، ويرعى العلوم، بل كان هو نفسه عالماً مشاركاً في علوم عصره، فقد كان متقناً للعلوم الإسلاميّة؛ حتّى سمع الحديث منه الشّيوخُ، وأجاز مرويّاتهم وأجازوه مرويّاتِهم، وكانت أبوابه مفتّحةً لطلبة العلم، ولا يردّ منهم أحداً. وأنشأ في القصر مكتبةً لا نبالغ إذا قلنا إنّها أعظم مكتبةٍ أنشأتها دولةٌ إسلاميّةٌ في القرون الوسطى، فقد بنى لها بناءً خاصًّا. وأقيم فيها رجال المكتبات من مفهرسين، ومسجّلين، ومنظّمين»[1].

ولنا أن نتصوّر عدد هؤلاء المفهرسين والنّسّاخ والمسجّلين، وما كان ينفَق عليهم في سبيل نقل وترجمة الكتب، ونسخها ثم فهرستها، غير أنّ ما يهمّنا هنا هو تلك العناية التي أولاها آخر خلفاء الدّولة الأمويّة في الأندلس للعلم وأهله. وهو عدد لا يستهان به، لأنّ هذه الوظائف تتطلّب الصّبر والإتقان، والتفرّغ التام، للنّهوض بالعلم. وبما أن "الحكم "كان من المشجّعين على التّأليف والنّسخ في قرطبة ونواحيها، فلا نعجب إذا كان هناك عددٌ معتبرٌ من المكتبات التي انتشرت في ربوع الأندلس.

«ولم يكن هذا الشّغف بجمع الكتب، في عصر الحَكم، قاصراً على الأمير، فقد عنى كثيرٌ من كبار العصر وعلمائه، بإنشاء مكتباتٍ خاصّةٍ زاخرةٍ بنفائس الكتب. وشُغِفَ النّساء المثقّفات كذلك بجمع الكتب، وإنشاء المكتبات، ومن أشهر هؤلاء "عائشة بنت أحمد بن قادمٍ"، وكانت من أبرع نساء عصرها، علماً وأدباً وشعراً، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصّة. وكانت سوق الكتب في قرطبة، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة»[2].

[1] - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرّشاد، مكتبة الأسرة، طبعة خاصّة، ص: 383.
[2] - محمّد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأوّل، القسم الأوّل، من الفتح إلى بداية عهد النّاصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، ص: 506.

ولم ينقطع الاهتمام بالكتب وجمعها ونسخها في عصر ملوك الطّوائف، ولا في عصر المرابطين، وقد ساعدت الرّحلات من الاندلس وإليه على ذلك الاهتمام بالكتب، ونقلها من مكانٍ إلى مكانٍ، «وكان المظفّر صاحب "بطليوس" جمّاعةً للكتب، وذا خزانةٍ عظيمةٍ،لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدبٍ ومعرفةٍ. ومن هذه المكتبة كوّن الموسوعة التي سمّيت بالكتاب "المظفّري"، وجمع أحمد بن عبّاس، الكاتب وزير زهير الفتى، كتباً كثيرةً، حتّى قيل إنّ عددها بلغ أربعمائة ألف كتابٍ. وكان القنطريّ من أهل "شلب" جمّاعةً للكتب والدّواوين، كما كان ابن مدرك المالقيّ التّاريخيّ النّسّابة بصيرًا بالخطوط مميّزًا لها، واقتنى من الدّواوين والدّفاتر عظيمها»[1].

وقد تفاوت حظّ الممالك الأندلسيّة من الأدب والشّعر، والنّحو وغيرها، حسب طبيعة الحُكم الموجود فيها، إلى غير ذلك من الأسباب، فالعلوم والآداب مثلا كانت في "غرناطة" وفي "طليطلة" أقلّ منها في "إشبيلية"، حيث بلاط بني عبّاد، «فقد أصبح هذا البلاط – وأصحابه عربٌ ذوو نزعةٍ شعريّةٍ واضحةٍ – مقصدًا للشّعراء من أنحاء مختلفة ... هذا إلى جانب ضروبٍ أخرى من التّشجيع الأدبيّ، فللمعتضد ألَّفَ الأعلم الشّنتمري شرح الأشعار السّتّة، وشرح الحماسة، وألّف غيرُه دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس»[2].

فتشجيع الحكّام في الأندلس كان من العوامل التي ساعدت على تأسيس مدرسةٍ نحويّةٍ في تلك البلاد البعيدة، سواءٌ في عصر الخلافة، أو بعد ذلك، وقد توسّع الأمر في عصر ملوك الطّوائف، وحتّى في عصرَي المرابطين والموحّدين، حيث أصبحت كلّ المدن مراكزَ للثّقافة والعلم، وقد اختلفت الميول -حسب كل بلاط-، فإذا كانت إشبيلية معروفةً بالجانب الأدبيّ، الذي يبرز في تقريب المعتضد والمعتمد للشّعراء أمثال "ابن زيدون" و"ابن عمار"، و"ابن اللّبانة"، و"ابن حمديس"، فإن بلاطَي "ذي النّون" بـــ"طليطلة"، و"بني هود" بـــ"سرقسطة" كانا ذوَي ميل علميّ، بينما كانت المباهاة بجمع أكبر عددٍ من العلماء المشهورين في الفقه، والحديث، واللّغة، ميزةً لبلاط "العامريّين" في "دانية"[3].

[1] - إحسان عبّاس، عصر الطّوائف والمرابطين، دار الشّروق، عمّان، الإصدار الأول، 1997، ص: 46-47.
[2] - المرجع نفسه، ص: 61-62.
[3] - ينظر ألبير حبيب، الحركة اللّغوية في الأندلس، منذ الفتح العربيّ، حتّى نهاية عصر ملوك الطّوائف ، ص: 195.

3 – رحلات الأندلسيّين إلى المشرق

رغم بُعد المسافة، إلّا أن علماء المغرب والأندلس كانوا يرحلون إلى بلدان المشرق العربيّ، للأخذ عن النّحاة واللّغويّين هناك، قبل العودة إلى الدّيار، ومحاولة تدريس بعض ما جلبوا من هناك، سواءٌ كان ذلك بصريًّا أو كوفيًّا.

فقد «أخذت الدّراسات النّحويّة تزدهر، وكانت في بداية أمرها متأثّرةً بمذهب الكوفيّين، ومردّ ذلك إلى أنّ أقدم نحاة الأندلس؛ وهو "جوديّ بن عثمان" المتوفيّ سنة 198 ه،كان قد رحل إلى المشرق، ولقي "الكسائيّ" و"الفرّاء" وغيرهما، وعند عودته إلى الأندلس حمل معه كتاب "الكسائيّ"، وأخذ يدرّسه إلى طلّابه، ثمّ تتابعت رحلة الأندلسيّين إلى المشرق، ينهلون من منابعه، ويتابعون نشاطه العلميّ، ومن ثَمّ رأينا منهم من ينشط لدراسة مذهب البصريّين؛ مثل "محمّد بن موسى الأندلسيّ" الملقّب بـ"الأفُشنيق"، الذي رحل إلى المشرق، فأخذ بمصر عن "أبي عليّ الدّينوريّ" كتاب "سيبويه"»[1].

وقد نشطت حركة الرّحلات العلميّة نحو بغداد، وغيرها من البلدان من قِبَل علماء المغرب والأندلس، سواءٌ في مواسم الحجّ، أو في سائر المواسم، وذلك من أجل الاستزادة من العلم، «ويرجع الفضل في نشاط هذه الرّحلات العلميّة إلى ولّاة الأندلس في هذه الفترة، فهم من بني أميّة الذين عُرفوا بعروبتهم الخالصة، وحرصهم على اللّغة العربيّة، ومناصرة العلم والعلماء، ولم يقف تشجيعهم على حثّ العلماء على الرّحلة والدّراسة والتّأليف فحسب، وإنما تمثّل أيضاً في حسن استقبال علماء المشرق؛ فقد وفد كثيرٌ من المشارقة إلى الأندلس، ليسهموا في هذه النّهضة العلميّة، وينعموا بخيرات هذه البلاد، فاستقبلهم أهل الأندلس أحسن استقبال»[2].

وسنذكر بعضاً من الذين استوطنوا أرض الأندلس، بعدما جلبوا إليها كثيرًا من الأشعار والأخبار، والكتب المتعلّقة بالنّحو واللّغة، فضلًا عن العلوم الأخرى.

[1] - السّنجرجيّ، مصطفى عبد العزيز، المذاهب النّحويّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة الحديثة، المكتبة الفيصليّة، ط1، 1986، ص: 79.
[2] - السّنجرجيّ، المرجع السّابق، ص: 79.

ومن الذين تثقّفوا في المشرق العربيّ "سوار بن طارق" «مولى عبد الرحمن بن معاوية، قرطبيٌّ، حجّ، ودخل البصرة، ولقي "الأصمعيّ" ونظراءه، وانصرف إلى الأندلس، وأدّب "الحَكم"، ومِن ولده"محمّد بن عبد الله بن سوار"، حجّ أيضا، ولقي "أبا حاتمٍ" بالبصرة، و"الرياشيّ"، وغيرهما، وأدخل الأندلس علماً كثيرًا»[1].

وقد ترجم له الزّبيديّ في الطّبقات، بعدما ذكره في الطّبقة الأولى من نحاة المغرب والأندلس، كما ترجم لابنه عبد الله في الطّبقة الثّانية، مضمّناً إيّاها ذكراً لحفيده محمّدٍ، من ذلك قوله عن عبد الله:

«كان من أهل العلم باللّغة، متفنّناً في علم الأدب، ورحل ابنه محمّد إلى المشرق، ولقي أبا حاتمٍ[2] والرّياشيّ[3] وغيرهما، وكانا رفيقين»[4].

فعبد الله وابنه كانا قد درسا النّحو البصريّ، وربّما أخذا شيئاً من النّحو الكوفيّ أيضا؛ ماداما قد لقيا جماعةً من النّحاة في تلك الفترة المذكورة، أي خلال القرن الثّالث الهجريّ.

ومن اللّغويّين الأندلسيّين الذين رحلوا إلى المشرق، وتثقّفوا هناك، قبل العودة إلى قرطبة، وتدريسه للطّلبة، "أبو عبد الله محمّدٌ بن يحيى بن عبد السلام الأزديّ"، المعروف بالرّباحيّ، وقد ذكره الزّبيديّ في الطّبقة السّادسة من نحاة المغرب والأندلس بقوله:

«ورحل إلى المشرق، فلقي أبا جعفر النّحّاس[5]، فحمل عنه كتاب سيبويه روايةً، ولازم علّان وناظره، وكان يذكر من دقّة نظره، وجودة قياسه. وقدم قرطبة فلزم التّأديب بها في داره، فانجفل النّاس إليه، ثم انتقل إلى أحد الحديريّين، فمكث عنده مدّة، وقُرئ عليه كتاب سيبويه، وأُخذ عنه رواية، وعقد للمناظرة فيه مجلساً في كلّ جمعةٍ. ولم يكن عند

[1] - المقّريّ، نفح الطّيب، ج2، ص: 46.

[2] - أبو حاتم سهل بن محمّد بن عثمان السّجستانيّ البصريّ، روى عن الأخفش، توفّي سنة 255 هجريّة، ذكره الزّبيديّ في الطّبقة السّابعة، ص: 94.

[3] - العبّاس بن الفرج الرّياشيّ، مولى محمّد بن سليمان بن عليّ، يكنّى أبا الفضل، يقول الخشنيّ: كان المازنيّ في الإعراب، وأبو حاتم في الشّعر والرواية، وكان الرّياشيّ في الجميع، وكان أهل البصرة إذا اختلفوا في شيء قالوا ما قال فيه أبو الفضل، قتل سنة 257 هجريّة ترجمته في : (طبقات الزّبيديّ : ص: 97)

[4] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 260.

[5] - أبو جعفر النّحّاس، نحويّ مصريّ، رحل إلى بغداد، وأخذ بها عن نحاة البصرة كالزّجّاج والمبرّد، نوفي سنة: 338 هجريّة.

مؤدّبي العربية، ولا عند غيرهم من عُني بالنّحو كبير علمٍ، حتّى ورد محمّد بن يحيى عليهم»[1].

فابن يحيى، قد حاول شرح وتبسيط الكتاب للطّلاب في مجلسه، بعدما كان قد أخذه وفهم مسائله، في مصر عن "النحّاس"، وهو ما يعني أن معظم الرّحلات العلميّة كانت بهدف مدارسة المذهبين البصريّ والكوفيّ، وبالأخصّ كتاب سيبويه «وعُني به عنايةً بالغةً، فاقت عناية من سبقه من الأئمّة، فأخذ يشرح مسائله، ويغوص وراء معانيه، وقد ساعده على ذلك دقّة نظره، وعمق ثقافته، وقدرته الفائقة على الاستنباط والتّحليل، والتّدقيق، والاعتراض، والجواب، وطرد الفروع على الأصول»[2].

وهذا يعني أنّ المدارس النّحويّة لم تكن مستقلّة أو منفصلة عن بعضها البعض؛ ولعلّ أكبر دليلٍ على ذلك أنّ المصريّين والأندلسيّين ما انفكّوا يتدارسون الكتب البصريّة والكوفيّة ويشرحون مستغلقها.

ومن الذين رحلوا إلى المشرق نجد "محمّدًا بن عبد الله بن الغازيّ"، وقد ذكره الزّبيدي في الطّبقات بقوله: «رحل إلى المشرق، فلقي الرّيّاشي وأبا حاتمٍ وإبراهيم بن خداشٍ، ولقي جماعةً من أصحاب الحديث؛ من أصحاب ابن عُيَيْنَة وغيرهم. وجلب إلى الأندلس علماً كثيراً من الشّعر والعربيّة والأخبار، وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحاتِ كلّها»[3].

فمحمّدٌ بن عبد الله بن الغازيّ، قد بذل جهودًا في سبيل نقل ما تيسّر من الشّعر والأخبار إلى الدّيار الأندلسيّة، إضافة إلى مرويّاته الكثيرة، عن شيوخه المشارقة. أمّا الغازيّ بن قيسٍ فـــ «كان ملتزماً للتّأديب بقرطبة أيّام دخول الإمام عبد الرّحمن بن معاوية – رضي الله عنه - الأندلس، ثمّ رحل إلى المشرق، وشهد تأليف مالكٍ للموطّأ، وهو أوّل من

[1] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 311.
[2] - السّنجرجيّ، مصطفى عبد العزيز، المذاهب النّحويّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة الحديثة، ص: 80.
[3] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 267.

أدخله الأندلس، وأدرك نافع بن أبي نُعَيمٍ، وقرأ عليه، وهو أوّل من أدخل قراءته. وكان الخليفة عبد الرّحمن – رضي الله عنه – له مجلاً معظّماً، وكان يأتيه ويصله في منزله»[1].

وهو ما يدلّ على تعظيم الخلفاء لأهل العلم، الذين حافظوا به على الهويّة العربيّة الإسلاميّة، رغم تغرّبهم عن الأوطان.

كما نجد من بين النّحاة الذين ذهبوا إلى المشرق، بغية الاستزادة من العلم، محمّداً بن عبد السّلام بن ثعلبة الخشنيّ، الذي يذكر أنّه «كان فصيح اللّسان بصيرًا بكلام العرب، رحل إلى المشرق، وقد أقام في رحلته متجوّلاً خمساً وعشرين سنةً، فلقي بالبصرة أبا حاتمٍ السّجستانيّ، والرّياشيّ، وأبا إسحاقٍ الزياديّ[2]، فأخذ عنهم كثيراً من كتب اللّغة، رواية عن الأصمعيّ وغيره، ودخل بغداد، فسمع بها عن غير واحدٍ، وأدخل الأندلس كثيراً من كتب اللّغة والشّعر الجاهليّ، إضافة إلى كثيرٍ من كتب الحديث»[3]

ونجد من هؤلاء الشّمر بن نُمَيرٍ النّحويّ المقرئ، الذي ذكره القفطيّ بقوله: «كان من أهل العلم بالعربيّة واللّغة، ورحل من قرطبة بعد التّأدّب بها إلى المشرق، فلقي رجالاً من أهل الحديث، منهم حسين بن أبي ضُميرة، مولى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- واستوطن مصر، وروى عنه عبد الله بن وهبٍ وغيره من نظرائه، وتوفّي هنالك ... واتّصل بالأمير عبد الرّحمن بن الحَكم، فلمّا ولي قرّبه من تخصّصه، وأنسبه به. وكان من ألطف النّاس محلاً عنده، وكان شاعرًا مفلّقاً»[4].

ومن الرّاحلين الأندلسيّين إلى المشرق، محمّد بن موسى بن هاشم بن زيد الأُفُشتيق[5] (بضمّ الفاء وسكون الشّين)، المتوفّي سنة ثلاثمائةٍ وسبعةٍ للهجرة، هذا الأخير الذي «لقي أبا جعفر الدّينوريّ، وانتسخ كتاب سيبويه من نسخته، وأخذ عنه روايةً، وأخذه عن المازنيّ،

[1] - الزّبيديّ، طبقات اللّغويّين والنّحويّين، ص: 254.
[2] - أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان الزّيادي، كان نحويًّا لغويًّا راويةً، قرأ على سيبويه كتابه، ولم يتمّه، وروى عن أبي عبيدة والأصمعيّ، وكان شاعرًا، صنّف الأمثال، وشرح نكت سيبويه، توفي سنة 249 ه.(طبقات الزّبيديّ، ص: 99).
[3] - درين، محمّد بن عمّار، تأثير الكوفيّين في نحاة الأندلس، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض، ص: 793-794.
[4] - القفطيّ، إنباه الرّواة، ج2، ص: 75.
[5] - هكذا ورد بالقاف في طبقات الزّبيديّ، والأصل بالفاء. ترجمته في: القفطيّ، إنباه الرّواة، ج3، ص، 216.

وروى كتب ابن قتيبة، عن إبراهيم بن جميل الأندلسيّ، أخذها عنه بمصر، وله كتبٌ مؤلفةٌ في الأدب، منها شواهد الحِكَم، وكتاب طبقات الكُتّاب»[1].

4 – رحلات المشارقة إلى الأندلس

إنّ الحديث عن رحلات المشارقة إلى الأندلس – كما ذكرنا- لم يكن بهدف طلب العلم؛ لسبب بسيط؛ وهو أن المشرق كان أوفر حظًّا؛ لوجود أشهر العلماء هناك، سواء في اللّغة؛ أو النّحو؛ أو الأخبار، فلم يكن هناك داعٍ للسّفر من أجل طلب ما أخذ أصلاً عن المشرق، لكن ما يلاحظ على هؤلاء المهاجرين نحو الأندلس أنّهم «أقلّ عددًا بكثيرٍ من نظرائهم الأندلسيّين الرّاحلين إلى المشرق، ولم تكن غايتهم من الرّحلة طلب العلم؛ لأنّ المشارقة كانوا يرون أنّهم أوفر نصيباً من الأندلسيّين في الشّئون العلميّة، ولذلك كانت لهم من الرّحلة غاياتٌ أخرى؛ منها التّجارة، أو التّكسب عامّةً، أو أسبابٌ أخرى خاصّة»[2]

ولعلّ من أبرز العلماء الوافدين على الأندلس، في أيّام الخليفة عبد الرّحمن النّاصر، أبو علي القاليّ البغداديّ، الذي أحسن الحكم المستنصر استقباله، وأمر وجوه رعيّته بالمجيء معه إلى قرطبة، وكان على رأسهم "ابن رماحس"

«وسار معه نحو قرطبة في موكبٍ نبيلٍ، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار، إلى أن تحاوروا يوماً - وهم سائرون- أدب عبد الملك ابن مروان، ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل، وإنشاده بيت عبدة ابن الطّبيب[3]:

ثُمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

وكان الذّاكرُ للحكاية الشّيخَ أبا عليّ، فأنشد الكلمة في البيت "أعرافها لأيدينا مناديل" فأنكرها ابن رفاعة الإلبيريّ، وكان من أهل الأدب والمعرفة»[4].

---

[1] - الزّبيديّ، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص: 282.

[2] - ألبير حبيب، الحركة اللّغويّة في الأندلس، منذ الفتح العربيّ، حتّى نهاية عصر ملوك الطّوائف، ص: 35.

[3] - شاعر مخضرم، توفّي بعد سنة 20 للهجرة، أسلم وحسن إسلامه، والبيت المذكور من قصيدة ذكرها الضّبّي في المفضّليّات، مطلعها:
هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الْهَجْرِ مَوْصُولُ أَمْ أَنْتَ عَنْهَا بَعِيدُ الدَّارِ مَشْغُولُ

[4] - المقّريّ، نفح الطّيب، ج3، ص: 70-71.

وقد ذكر الحُميدي أنّ الخليفة المذكور «قد كتب إليه، ورغّبه في الوفود عليه، واستوطن قرطبة، ونشر علمه بها، وكان إماماً في علم اللّغة، متقدّماً فيها، متقناً لها، فاستفاد النّاس منه، وعوّلوا عليه، واتّخذوه حجّةً فيما نقله، وكانت كتبه على غاية التّقييد والضّبط والإتقان، وقد ألّف في علمه الذي اختصّ به تواليف مشهورةً، تدلّ على سعة روايته، وكثرة إشرافه، وأملى كتاباً سماه: "النّوادر" يشتمل على أخبارٍ، وأشعارٍ ولغة»[1].

وللقاليّ كتاب الأمالي، وهو أشهر كتبه، كما أنّ له كتاب "المقصور والممدود"، ومعجم "البارع في اللغة"، «وباسم الحَكَم طرّز أبو عليّ كتاب الأمالي المشهور، وكان قبل ولاية الأمر وبعدها ينشّطه ويعينه على التّأليف بواسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام»[2]

وقد ذكر أصحاب التّراجم أنّ أبا عليّ القاليّ قد جاء، ومعه مجموعةٌ كبيرةٌ من دواوين الشّعراء، من جاهليّين، ومخضرمين، وإسلاميّين، وحتّى من المولّدين، «وقد اختار من القصائد عيونها، فحمل معه قصيدة "عمرو بن كلثوم"، وقصيدة "لقيط بن معمر الإياديّ"، مقصورة "ابن دريد" والمربّعة ل"ابن دريد"، وقصيدة "كعب بن زهير" في مدح الرّسول – عليه الصّلاة والسّلام -، وقصيدة "الفرزدق": "هَذَا الذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ"، والقصيدة اليتيمة لـ"ذي الرّمّة"، "هَلْ بِالطُّلُولِ لِسَائِلٍ رَدُّ". وكان هذا الشّعر ممّا قرأه موثّقا على "نفطويه" و"ابن دريدٍ"، من شيوخه وأساتذته»[3].

وقد اشتهر "كتاب الأمالي" في الأندلس، وكان القاليّ: «قد أملى كتابه الأماليّ على طلّابه بجامع قرطبة، ويعدّ هذا الكتاب في مقدّمة كتب الأدب العربي، وقد اشتمل على بعض البحوث اللّغويّة، والنّحويّة، والصّرفية مثل: "مطلب في الكلمات التي تتعاقب فيها الفاء والثّاء"، "وما في لعلّ من لغات العرب"، "وما يُمَدّ ويُقصر من الكلمات"، "وما يُقلب من حروف المضاعف إلى الياء"، و"حروف البدل، والكلام على الإتباع"»[4].

[1] - الحُمَيديّ، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص: 253.
[2] - الرّافعيّ، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ط، د.ت، ج2، ص: 229.
[3] - مصطفى عليان عبد الرّحيم، تيّارات النّقد الأدبيّ في الأندلس، ص: 21.
[4] - السّنجرجيّ، مصطفى عبد العزيز، المذاهب النّحويّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة الحديثة، ص: 80.

يقول القاليّ في مقدّمة الكتاب: «فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ الْعِلْمَ أَنْفَسَ بِضَاعَةٍ، أَيْقَنْتُ أَنَّ طَلَبَهُ أَفْضَلُ تِجَارَةٍ، فَاغْتَرَبْتُ لِلرِّوَايَةِ، وَلَزِمْتُ الْعُلَمَاءَ لِلدِّرَايَةِ، ثُمَّ أَعْمَلْتُ نَفْسِي فِي جَمْعِهِ، وَشَغَلْتُ ذِهْنِي بِحِفْظِهِ، حَتَّى حَوَيْتُ خَطِيرَهُ، وَأَحْرَزْتُ رَفِيعَهُ، وَرَوَيْتُ جَلِيلَهُ، وَعَرَفْتُ دَقِيقَهُ، وَعَقَلْتُ شَارِدَهُ، وَرَوَيْتُ نَادِرَهُ، وَعَلِمْتُ غَامِضَهُ، وَوَعَيْتُ وَاضِحَهُ. ثُمَّ صُنْتُهُ بِالْكِتْمَانِ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ مِقْدَارَهُ، وَنَزَّهْتُهُ عَنِ الْإِذَاعَةِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ مَكَانَهُ، وَجَعَلْتُ غَرَضِي أَنْ أُودِعَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَأُبْدِيَهُ لِمَنْ يَعْلَمُ فَضْلَهُ ...»[1].

وتدلّ أمالي القاليّ على سعة اطّلاعة، ومعرفته بالأدب واللّغة، وروايته للأشعار، وغير ذلك، وهو يسند كلّ مطلبٍ من مطالب الأمالي، كما يذكر الشّواهد التي تعزّزه، من ذلك قوله في "مطلب الكلام على مادّة لحن، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[2] : « واللّحَن بفتح الحاء: الفطنة، وربما أسكنوا الحاء في الفطنة، ورجل لحِنٌ أي فطن، قال لبيد يصف كاتباً:

مُتَعَوّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بِكَفِّهِ قَلَمًا عَلَى عُسُبٍ ذَبَلْنَ وَبَانِ[3]

وحدّثني أبو بكرٍ عن أبي العبّاس، عن ابن الأعرابيّ، قال: يقال قد لحن الرجل يلحن لحناً؛ فهو لاحن إذا أخطأ، ولَحِنَ يلحن لحناً فهو لَحِن إذا أصاب وفطن، وأنشد:

وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ يُوزَنُ وَزْنَا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا نًا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

معناه: وتصيب أحياناً.»[4]

ومن الوافدين على قرطبة في زمن المنصور، الأديب واللّغويّ صاعد[5] البغداديّ، هذا الأخير الذي ورد -هو الآخر- أرض الأندلس من بغداد، في زمن هشام المؤيّد، وولاية المنصور بن أبي عامر، والذي ذكره "ابن بشكوال"، نقلاً عن "الحُميدي"، هذا الأخير الذي وصفه بقوله: «كان عالماً باللّغة والآداب والأخبار، سريعَ الجواب، حسنَ الشّعر، طيّبَ

[1] - القاليّ، أبو عليّ، إسماعيل بن القاسم، كتاب الأمالي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1975، ج1، ص: 21-22.
[2] - سورة محمّد، 30.
[3] - لبيد بن ربيعة العامريّ، الدّيوان، شرح الطّوسيّ، تق: حنّا ناصر الحتّي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط1، 1993، ص: 267.
[4] - القاليّ، أبو عليّ، إسماعيل بن القاسم، كتاب الأمالي، ج1، ص: 26.
[5] - ترجمته في: الحُميديّ، جذوة الاقتباس، ص: 373. وابن بشكوال: الصّلة، ج1، ص: 321.

المعاشرة، فكه المجالسة ممتعاً، فأكرمه المنصور، وزاد في الإحسان إليه، والإفضال عليه. وكان مع ذلك محسناً للسّؤال، حاذقاً في استخراج الأموال، طيّبا بلطائف الشّكر»[1].

وعلى الرّغم من الأوصاف المذكورة، فإنّه لم يلق التّرحيب الذي لقيه القاليّ قبله، فقد «دفعوه بالجملة عن العلم باللّغة. وأبعدوه عن الثّقة في علمه وعقله ودينه. ولذلك ما رضيه أحدٌ من أهلها أيّام دخوله إليها، ولا رأوه أهلاً للأخذ عنه، ولا للاقتداء به، وغرّقوا كتابه المترجم بـــ"الفصوص"، فها هو إلى اليوم في نهرهم يغوص»[2]

وقد ذكر المؤلّفون بعض أخبار صاعدٍ، وما جرى له مع نحاة الأندلس، في مجلس المنصور، الذي أراد أن يقربّه، ويجعله من جلسائه، لكن يبدو أن ظنّه قد خاب في ذلك، ومن تلك الأخبار ما ذكره المقّريّ حيث قال: «ولمّا دخل صاعد قرطبة أيّام المنصور بن أبي عامر، عزم المنصور على أن يعفّي به آثار أبي عليّ البغداديّ الوافد على بني أميّة، فما وجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهلُ العلم، وقدحوا في علمه وعقله ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلّة الثّقة به، وكان ألّف كتاباً سمّاه كتاب "الفصوص" فدحضوه، ورفضوه ونبذوه في النّهر، ومن شعره قوله:

وَمُهَفْهَفٍ أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ قَهَرَ الْفُؤَادَ بِفَاتِنِ النَّظَرِ
خَالَسَتْهُ تُفَّاحَ وَجْنَتِه فَأَخَذْتُهَا مِنْهُ عَلَى غَرَرِ
فَأَخَافَنِي قَوْمٌ فَقُلْتُ لَهُمْ لَا قَطعَ فِي ثَمَرٍ وَلَا كَثَرِ »[3].

5 ـ المناظرات

لقد عرفنا أنّه كان لنحاة البصرة والكوفة العديد من المجالس، التي أخذت شكل المناظرة النّحويّة، وقد جرت مجالس مشابهة لذلك في الأندلس، «وقد تنوّعت المناظرات اللّغويّة في الأندلس، وأخذت عدّة أشكالٍ: فمنها ما كان بين الطّالب والمؤدّب، وإن كانت هذه قليلة الحدوث؛ لسببٍ بسيطٍ هو أن المناظراتِ كانت تحتاج إلى ندّين بنفس المستوى الثّقافيّ والعلميّ تقريباً، وهذا الأمر غير موجود في مناظرة الطّالب مع مؤدّبه؛ لذلك كانت قليلة الحدوث ... أمّا الشّكل الآخر للمناظرات، فهو المناظرة بين نحويٍّ وآخر، وهذه

[1] ـ ابن بشكوال، الصّلة، ج1، ص: 322.
[2] ـ التّنتيري، ابن بسّام، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص: 9.
[3] ـ المقّريّ، نفح الطّيب، ج3، ص: 76.

المناظرات كانت شائعةً إلى حدٍّ كبيرٍ، وقد أثْرت هذه المناظرات الدّرس النّحويّ إلى أقصى درجة»[1]

وقد كانت تجري بعض المناظرات في مجالس الخلفاء والعلماء بالأندلس، وهي شبيهةٌ بتلك التي كانت تقام بين البصريّين والكوفيّين في المشرق، حول بعض المسائل النّحويّة والصّرفية، وقد أورد المقّري بعضاً منها، والذي ينقل فيه عن ابن بسّامٍ صاحب "الذّخيرة"، إذ يذكر هذا الأخير بعض ما جرى في المجالس من مناظرات.

ولعلّ أبرزها ما ذكره بخصوص "صاعدٍ البغدادي" المذكور، في مجلس ضمّ الزّبيدي والعاصميّ[2] وابن العريف[3] وغيرهم، عند المنصور، فسأله هذا الأخير «عن أبي سعيدٍ السّيرافي، فزعم أنّه لقيه، وقرأ عليه كتاب سيبويه. فبادره العاصميّ بالسؤال عن مسألةٍ من الكتاب، فلم يحضره فيها من جوابٍ، واعتذر أن النّحو ليس جلّ بضاعته. ولا رأس صناعته. فقال له الزّبيديّ: فما تحسن أيّها الشّيخ ؟ قال: حفظ الغريب. قال: فما وزن أولق ؟ فضحك صاعدٌ، وقال: أمثلي يُسأل عن هذا ؟ إنّما يسأل عنه صبيان المكتب. قال الزّبيديّ: فقد سألناك، ولا نشكّ أنّك تجهله. فتغيّر لونه، وقال: "أفعل". قال الزّبيديّ: صاحبكم ممخرق !»[4]

ثانياً: دوافع التّأليف النّحويّ في الأندلس

ممّا لا شكّ فيه أنّ نحاة الأندلس ولغويّيه كانوا على صلةٍ بنظرائهم المشارقة، وذلك اعتماداً على ما سبق ذكره من الرّحلات العلميّة المختلفة، والتي ذكرها أصحاب التّراجم ك"المقّري" و"الحّميدي" و"ابن الفرضي" وابن بشكوال"، وغيرهم، وهي تدلّ – في مجملها أنّ الرّوابط الثّقافيّة بين الأندلس والمشرق لم تنقطع يومًا، على الرّغم من بُعد المسافة.

[1] - فادي، صقر أحمد عصيدة، جهود نحاة المغرب والأندلس، ص: 30.
[2] - محمّد بن عاصم النّحويّ القرطبيّ، يكنّى أبا عبد الله (الصّلة لابن بشكوال، ج2، ص: 102، رقم التّرجمة: 1034).
[3] - أبو القاسم الحسين بن الوليد.
[4] - الشّنتيري، ابن بسّام، الذّخيرة، القسم الرّابع، ص: 15.

من هنا، وجب علينا البحث عن العوامل التي أدّت إلى بروز مدرسةٍ نحويّةٍ في الأندلس، لها أعلامها وخصائصها، وسماتها التي تميّزها عن غيرها، وقد كانت العوامل شبيهةً - بعض الشيء - بتلك التي أدّت إلى ظهور المدرستين البصريّة والكوفيّة، وقد ساعد على ذلك تلك الرّحلات التي ذكرنا بعضاً منها، وبذلك نستطيع القول بأنّ رحلاتِ العلماء من وإلى الأندلس قد شكّلت أهمّ عاملَين في ظهور مدرسةٍ نحويّةٍ أندلسيّةٍ.

«فتولّد من هذين العاملين حركةٌ في علم النّحو، في ظلّ الأمويّين والأغالبة والفاطميّين، واطّرد نموّها في عصر ملوك الطّوائف؛ الذين قاموا على أنقاض الأمويّين، وتقاسموا بلاد الأندلس بينهم من سنة 428 ه، فإنّهم كانوا يتبارون في تقدير العلم وأهله، حتّى كان منهم العلماء والمؤلّفون، وفي خلال تلك الحقبة هبّت نسمةٌ من الأندلس على بلاد المغرب، انتعشت فيها»[1].

1- ظهور اللّحن

فقد ظهر اللّحن وسط العرب في الأندلس، نتيجة اختلاطهم بالأمم المختلفة، من البربر والموالي والقوط، وغيرهم، «وأصبحت اللّغة العربيّة بذلك مهدّدة بطغيان هذه الظّاهرة، التي سبق لها الظّهور في المشرق العربيّ، فمع الزّمن أخذت تتفشّى الأخطاء في الكتابة، حتّى عند المدقّقين، الذين يتحرّون وجه الصّواب، وما ذاك إلّا لأنّ العامّيّة الأندلسيّة كانت تزاحم الفصحى مزاحمةً شديدةً، بدأت الفصحى بمختلف اللّهجات، وتتدنّى شيئاً فشيئاً، سواءٌ كان ذلك في المغرب أو الأندلس، فبرزت الحاجة إلى إعادة الأمور إلى نصابها، واسترجاع الفصحى لمكانها الطّبيعيّ في مجتمعٍ مسلم»[2].

ومن أمثلة ذلك ما ذكره "الحُميدي"، حول المحاورة الشّعرية التي جرت بين "أبي بكرٍ الزّبيدي" اللّغويّ، والوزير "جعفرٍ بن عثمان المصحفيّ"، حيث يقول: «كتب الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفيّ إلى صاحب الشّرطة أبي بكرٍ محمّد بن الحسن

[1] - الطّنطاويّ، أحمد، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، ص: 219-220.
[2] - حفيظة، يحياويّ، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدّرس النّحويّ العربيّ خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريّين، مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011، ص: 76-77.

الزّبيديّ اللّغويّ، كتاباً فيه "فاضت نفسه"، بالضّاد، فجاوبه الزّبيديّ بمنظومٍ بيَّن فيه الخطأ دون تصريحٍ، وهو:

قُلْ لِلْوَزِيرِ السَّنِيِّ مَحْتِدُهُ لِي ذِمَّةٌ مِنْكَ أَنْتَ حَافِظُهَا

عِنَايَةٌ بِالْعُلُومِ مَفْخَرَةٌ قَدْ بَهَظَ الْأَوَّلِينَ بَاهِظُهَا

يُقِرُّ لِي عَمْرُهَا وَمَعْمَرُهَا فِيهَا وَنَظَّامُهَا وَجَاحِظُهَا

قَدْ كَانَ حَقًّا قَبُولُ حُرْمَتِهَا لَكِنَّ صَرْفَ الزَّمَانِ لَافِظُهَا

وَفِي خُطُوبِ الزَّمَانِ لِي عِظَةٌ لَوْ كَانَ يَثْنِي النُّفُوسَ وَاعِظُهَا

إِنْ لَمْ تُحَافِظْ عِصَابَةٌ نُسِبَتْ إِلَيْكَ قِدْماً فَمَنْ يُحَافِظُهَا

لَا تَدَعَنْ حَاجَتِي يَمَطْرَحَةٍ فَإِنَّ نَفْسِي قَدْ فَاظَ فَائِظُهَا

فَأَجَابَهُ المُصْحَفِيّ:

خَفِّظْ فَوَاقًا فَأَنْتَ أَوْحَدُهَا عِلْماً وَنَقَّابُهَا وحَافِظُهَا

كَيْفَ تَضِيعُ الْعُلُومُ فِي بَلَدٍ أَبْنَاؤُهُ كُلُّهُمْ يُحَافِظُهَا

أَلْفَاظُهُمْ كُلُّهَا مُعَطَّلَةٌ مَا لَمْ يُعَوِّلْ عَلَيْكَ لَافِظُهَا

مَنْ ذَا يُسَاوِيكَ إِنْ نَطَقْتَ وَقَدْ أَقَرَّ بِالْعَجْزِ عَنْكَ جَاحِظُهَا

عِلْمٌ ثَنَى الْعَالَمِينَ عَنْكَ كَمَا ثَنَى عَنِ الشَّمْسِ مَنْ يُلَاحِظُهَا

وَقَدْ أَتَتْنِي فُدِيتَ شَاغِلَةٌ لِلنَّفْسِ أَنْ قُلْتُ: فَاظَ فَائِظُهَا

فَأَوْضِحَنْهَا تَفُزْ بِنَادِرَةٍ قَدْ بَهَظَ الأَوَّلِينَ بَاهِظُهَا »[1]

وقد ألّف الزّبيديّ كتاباً سمّاه "لحن العوامّ"، وهو عبارةٌ عن معجمٍ في الألفاظ التي وقع فيها اللّحن، يقول في مقدّمته: «ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنَ الْكَلَامِ فِي زَمَانِنَا وَبِأُفُقِنَا، فَأَلْفَيْتُ جُمَلاً، لَمْ يَذْكُرْهَا "أَبُو حَاتِمٍ"، وَلَا غَيْرُهُ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ، فِيمَا نَبَّهُوا إِلَيْهِ، وَدَلُّوا عَلَيْهِ، مِمَّا قَدْ أَفْسَدَتْهُ الْعَامَّةُ عِنْدَنَا، فَأَحَالُوا لَفْظَهُ، أَوْ وَضَعُوهُ غَيْرَ مَوْضِعِهِ، وَتَابَعَهُمْ جِلَّةُ الْكُتَّابِ،

[1] - الحُميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص: 87.

وَعِلْيَةُ الْخَدَمَةِ فِي رَسَائِلِهِمْ، وَتَلَاقَوْا فِي مَحَافِلِهِمْ، فَرَأَيْتُ أَنْ أُنَبِّهَ عَلَيْهِ، وَأُبَيِّنَ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهِ، وَأَنْ أُفْرِدَ لِمَا يَحْضُرُنِي مِنْهُ كِتَاباً أَحْصُرُهُ بِهِ، وَأَجْمَعُهُ فِيه»[1].

2 - الرّدّ على المشارقة

ونعني بذلك أن النّحو قد ظهر بصورةٍ تكاد تكون مستقلّةً، استجابةً لرغبةٍ في مجاراة المدرستين البصريّة والكوفيّة، وغيرهما، فإذا كان للبصرة، والكوفة، وبغداد، وسائر الأمصار، مدارس للنّحو، فلماذا لا تكون لأهل المغرب والأندلس مدرسةٌ مستقلّةٌ، لها أعلامهما وخصائصها، وقواعدها الخاصّة بها؟، ولم لا تؤلَّف كتبٌ، تنظّر للاتّجاه الأندلسيّ في النّحو؟.

فقد «كان المغاربة والأندلسيّون يحسّون بنوع من التّخلف عن المشارقة، فحاولوا أن يعوّضوا ذلك بتأكيد تفوّقهم رغم بعدهم، وسبقهم رغم غربتهم، ومن هنا نراهم يتعصّبون للّغة، حيث يفتنون بعلم النّحو ويقتلونه درسًا وتأليفًا، كان حبّ التفوّق على المشارقة هاجسهم، الذي عملوا بقوّة لتحقيقه، خاصّة في مجال اللّغة والنّحو»[2].

وبذلك نجد أنّ روّاد المدرسة الأندلسيّة قد استطاعوا أن يكوّنوا لهم مدرسةً خاصّةً في مجالي الدّراسات النّحوية واللّغوية، وظهرت مؤلفاتٌ عديدةٌ تحمل خصائص المدرسة، لا سيما جهود أبي عليّ القاليّ ومدرسته النّحوية (رغم أنّ هذا الأخير وافد من بغداد)، وقد ألّف العديد من الكتب، مثل "فعلت وأفعلت" و"البارع"، الذي يعدّ أوّل معجم في الأندلس، إضافةً إلى جهود الزّبيديّ، وابن سيدة وغيرهما كثيرٌ، وبذلك يمكن القول إنّ هؤلاء الرّواد قد استطاعوا إن يشكّلوا لهم مدرسةً مستقلّةً، رغم أنّها استقت من مَعينٍ مشرقيٍّ.

[1] - الزّبيديّ، أبو بكر، لحن العوامّ، تح: رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط2، 2000، ص: 61-62.
[2] - حفيظة، يحياويّ، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدّرس النّحويّ العربيّ، ص: 77.

ولعل أبا بكرٍ ابنَ القوطيّة (توفي سنة 369) من الذين ساروا في هذا الإتّجاه، وحاول أن يرسم معالم درسٍ نحويٍّ أندلسيٍّ، وهو من نحاة القرن الرّابع الهجريّ، و«كان من أعلم أهل زمانه باللّغة العربيّة، يروي الحديث، والفقه، والأخبار، والنّوادر، وكان من أكثر النّاس روايةً للأشعار، وإدراكاً للآثار، وكان مضطلعاً بأخبار الأندلس، عارفاً بِسِيَرِ أمرائها، وأحوال فقهائها»[1]، وهو صاحب كتاب "الأفعال"

3 ـ شرح الكتب وتبسيطها

إنّ الملفت للانتباه في الدّراسات النّحويّة الأندلسيّة أنها لم تكن منسلخةً عن غيرها؛ بمعنى أنّها لم تنشأ من فراغٍ، فمعظم المؤدّبين والنّحاة كانوا من الذين زاروا مختلف الأمصار في المشرق، قبل العودة، وتدريس الطّلبة، وقد مرّ بنا الحديث عن بعضهم، غير أنّ ما يهمّنا هنا أن علماء اللّغة والنّحو الأندلسيَّيْن كانوا كثيرًا ما يسعون لشرح بعض الكتب، التي جلبوها معهم، ومن أدلّة ذلك اهتمامهم بشرح وتبسيط كتاب سيبويه؛ حيث ألّفت في ذلك العديد من الشّروح.

فقد كان الاهتمام بـــ"الكتاب" بارزاً؛ من خلال الشّروح والتّعليقات التي ألّفت حوله «وإليه تؤول فضيلة النّهضة الأندلسيّة المغربيّة، فقد شغف به الأندلسيّون والمغاربة من هذا الحين، وتنافسوا في إظهاره، إذ كان حفظه عندهم شارة النّبوغ في العربيّة، فمن حَفَظَته "حمدون النّحويّ القيروانيّ"، و"خَلَف بن يوسف الشّنتيريّ"، وغيرهما، وعنوا بشرحه، والتّعليق عليه، فشرحه منهم "أبو بكرٍ بن الخشنيّ"، و"ابن الطّراوة"، و"ابن خروفٍ"، و"ابن الباذش" وغيرهم. وما انفكّت العناية به تزداد تترى، حتى انتهت رياسة النّحو إلى "ابن الضّائع"؛ فقد شرح كتاب سيبويه، وأبدى مشكلاتٍ فيه عجيبة»[2]

وقد ذكرنا أن "الأفشنيق" قد لقي "الدّينوريّ" وانتسخ منه كتاب "سيبويه"، «وقد ظهرت بعد "الأفشنيق" مجموعةٌ من النّحاة، وجّهوا اهتمامهم إلى كتاب "سيبويه"؛ فدرسوه واهتمّوا بالنّظر فيه، ومن أشهرهم "أبو وهبٍ عبد الوهاب بن محمّدٍ بن عبد الرّؤوف"، الذي حذق كتاب "سيبويه" ومسائله، وكان يسأل أصحابه في مسائل من عويص النّحو

[1] ـ السّرجانيّ، راغب، قصّة الأندلس من الفتح إلى السّقوط، ص: 230.
[2] ـ الطّنطاوي، نشأة النّحو، ص: 221.

عندما كان وزيراً، فاستعفوه لبرمهم به. و"أحمد بن يوسف بن حجّاج"؛ الذي كان أعلم النّاس بالنّحو، وأحفظهم لمسائله»[1]

ورغم أنّ الكتاب كان معروفاً لدى نحاة الأندلس من القرن الثّالث للهجرة، وذلك عن طريق الرّحلات العلميّة، وقراءته روايةً واستنساخاً، فإنّ « الهمم لم تنصرف إلى استظهاره إلّا في القرن الخامس؛ كأنّهم جعلوا ذلك منافسةً، وقد ذكروا أنّ "عبد الملك بن سراج"، إمام أهل قرطبة، المتوفّي سنة 489، عكف عليه ثمانية عشر عاماً، لا يعرف سواه، ومن ذلك العهد ابتدؤوا يقرؤونه ويشرحونه، ويملون عليه التّعاليق»[2]. ومن شرّاح الكتاب في الأندلس:

1 – الأعلم الشّنتمري : له شرح على الكتاب ، وشرح أبياته وغريبه.

2 – ابن الطّراوة[3]: صاحب كتاب المقدّمات إلى علم الكتاب.

3 – ابن الباذش[4]: صاحب الشّروح الكثيرة على كتب البصريّين والكوفيّين، منها شرح على الكتاب.

4 – ابن خروف[5]: صاحب "تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب".

5 – ابن عصفور[6]: تميّز في شرحه، وخالف جمهور النّحاة ممّن سبقه إلى شرح هذا الكتاب، سواء أكان ذلك في طريقة تناوله لآراء "سيبويه"، أو في نقدها والتّعليق عليها.[7]

ثالثاً: المدرسة الكوفيّة وأثرها في النّحو الأندلسيّ

[1] - الحديثيّ، خديجة، المدارس النّحويّة، ، دار الأمل، إربد، ط3، 2001، ص: 211.
[2] - الرّافعيّ، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ج2، ص: 282.
[3] - أبو الحسن، سليمان بن محمّد، ولد بمالقة، ورحل إلى قرطبة، فسمع عن الأعلم كتاب سيبويه. توفّي بمالقة سنة 528 هـ .
[4] - عليّ بن أحمد بن خلف الأنصاريّ الغرناطيّ (444 هـ - 528 هـ) (بغية الوعاة للسّيوطيّ، ج2، ص: 143).
[5] - عليّ بن محمّد بن عليّ، كان إماماً في العربيّة، توفّي سنة 609 هـ . (بغية الوعاة للسّيوطيّ، ج2، ص: 203)
[6] - أبو الحسن عليّ بن مؤمن، حامل لواء العربيّة في زمانه، توفّي سنة: 663 هـ . (بغية الوعاة للسّيوطيّ، ج2، ص: 210)
[7] - يحياويّ حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدّرس النّحويّ العربيّ، ص: 153.

يُجمع كل من بحث في المدارس النّحويّة على أنّ المذهب الأندلسيّ قد أخذ - أوّل الأمر - بطريقة ونهج الكوفيّين؛ ويظهر ذلك منذ البدايات الأولى، على يد "جوديّ بن عثمان المورورِيّ" المتوفي سنة 198 للهجرة، وذلك بعدما كان الاعتماد أوّل الأمر منصبًّا على جمهور المؤدّبين.

«ويتّضح ممّا جاء في أخبار هؤلاء المؤدّبين والنّحاة الأندلسيّين، أنّهم كانوا يعنون بالنّحو الكوفيّ؛ الذي كان أوّل من حَمَلَه إليهم إلى الأندلس "جوديّ بن عثمان"؛ الذي رحل إلى المشرق، ولقي الكسائيّ والفرّاء، وإنّ كتب هذين الشّيخين كانت موضع اهتمام نحاة هذه المرحلة؛ فدرسوها وشرحوها، وألّفوا في نحوها، ويبدو أن هؤلاء النّحاة كانوا يرحلون إلى بغداد عاصمة الدّولة العباسيّة في العراق، ويلتقون بنُحاتها الذين كانوا من الكوفيّين، ولهذا انتشر هذا النّحو في ذلك العهد بالأندلس»[1].

فالرّحلة إلى عاصمة الخلافة في المشرق قد جمع بين علماء الأندلس القادمين بغية الاستزادة من العلم، وبين نحاة الكوفة، الذين كانوا في أوجّ عطائهم الفكريّ، أو بمعنى آخر فإنّه «لمّا جاء الأندلسيّون لطلب النّحو العربيّ، وجدوا النّحو الكوفيّ في بدايته، والآراء النّحويّة عندهم بسيطةً، بعيدةً عن التّعقيد، فأخذوا بها؛ لأنّهم وجدوا فيها سهولةً، ويسراً يتناسب ومستواهم العلميّ في مجال النّحو العربيّ الذي أصابه بعض التّعقيد البصريّ؛ لذلك كانت المدرسة الكوفيّة، وآراؤها البسيطة محطّ اهتمام الأندلسيّين المبتدئين في هذا العلم»[2].

وهذا ما دفع بهم إلى اعتمادها، بدل آراء المدرسة البصريّة، المعروفة بتشدّدها في العديد من المسائل، ورفضها رواية أشعار الكثير من الشّعراء، بسبب قبائلهم وعصورهم. من هنا يمكن القول إنّ روّاد المدرسة الأندلسيّة قد تبنّوا المنهج الكوفيّ لبُعده عن التّعقيد والتّشدّد.

وهذا التّشديد من قبل البصريّين، دفع بالأندلسيّين إلى اقتفاء أثر الكوفيّين في العديد من المسائل، نظراً لقرب التّوجه، ولنشوء المدرستين في وقتٍ متقاربٍ، على عكس المدرسة البصريّة، التي بلغت مرحلةً متقدمةً، «فقد بدأ اتّصال الأندلسيّين بالمذهب النّحويّ

[1] - الحديثيّ، خديجة، المدارس النّحويّة، ص: 311.
[2] - فادي، صقر أحمد عصيدة، جهود نحاة الأندلس، ص: 13.

الكوفيّ مبكّرًا؛ حيث تتلمذ بعض الأندلسيّين للكسائيّ والفرّاء وثعلب. وواضح أنّ إحدى الطّرق المهمّة – وربّما كانت أهمّ الطّرائق – التي تواصل بها الأندلسيّون والكوفيّين: الرّحلةُ، والتّلمذةُ المباشرة لشيوخ المذهب الكوفيّ، وواضعي سماتِهِ»[1] .

وهذا ما أشرنا إليه خلال الحديث عن التّواصل بين الفريقين، في فقرة الرّحلات العلميّة. وهذا لا يعني أنّهم لم يأخذوا عن غير الكوفيّين، فهناك من تتلمذ على بعض هؤلاء وبعض أولئك.

1 ـ كثرة الرّواية عن العرب

وإذا كان البصريّون متشدّدين، فإنّ الكوفيّين على العكس من ذلك تماماً، خاصّةً فيما يخصّ الرّواية عن العرب، إذ «المعروف عن المدرسة الكوفيّة، وعن علمائها أنّهم أهل شعر، وروايةٍ عن العرب وفصحائهم، لذلك ابتعدوا إلى حدٍّ بعيدٍ عن القوانين المنطقيّة أو الأقيسة العقليّة، في حين أنّ البصرة وعلماءها لم يكونوا على نفس درجة الكوفيّين في الشّعر وأخبار العرب، لذلك عوّضوا هذا النّقص بإطلاق العنان للعقل؛ ليقيس ويتشدّد في القياس، وهم كانوا يرون أن الخطأ بالقياس جريمةٌ لا تغتفر، في حين أنّ الخطأ في الرواية أمرٌ طبيعيٌّ لابأس به».

فالبصريّون قد اعتمدوا على القياس بشكلٍ كبيرٍ، وهذا ما جعلهم يرفضون العديد من الشّواهد والمسائل التي اعتمدها الكوفيّون، كلّ ذلك جعل الأندلسيّين الوافدين يُقبلون على المذهب الكوفيّ. هروباً «من تشدّد البصرة في فصاحة العربيّ، الذي تأخذ عنه اللّغة والشّعر، وتساهل الكوفيّين؛ حتّى إنّهم كانوا يأخذون عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق، ممّا جعل بعض البصريّين يفخر على الكوفيّين بقوله: "نحن نأخذ اللّغة عن حرشة الضّباب، وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشّواريز، وباعة الكواميخ"»[2].

2 ـ الابتعاد عن التّأويل

[1] ـ درين، محمّد بن عمّار، تأثير الكوفيّين في نحاة الأندلس، ص: 62.

[2] ـ أحمد مختار عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ص: 137. والعبارة الأخيرة وردت في أخبار النّحويّين البصريّين للسّيرافي بصيغة أخرى، في ترجمة أبي الفضل عبّاس بن الفرج الرّياشيّ، الذي يقول: "إنّما أخذنا اللّغة عن حَرَشَةِ الضِّباب، وَأَكَلَةِ الْيَرَابِيعِ، وَهَؤُلَاءِ أَخَذُوا اللُّغَةَ عَنْ أَهْلِ السَّوَادِ، أَصْحَابِ الْكَوَامِيخِ وَأَكَلَةِ الشَّوَارِيزِ. (ص: 68).

المعروف عن المنهج البصريّ تشدّده في الرّواية، وإهمال الشّاذّ منها، أو إخضاعه للأقيسة المعتمدة لديهم، ولو بالاعتماد على التّأويل، بينما عُرف عن المنهج الكوفيّ اعتماده على الشّواهد، واستخراج القواعد، بمعنى أنّهم قد يقيسون على الشاذّ، ويجعلون منه أصلاً، لدرجة «أنّ التّأويل والتّقدير كثُر عند البصريّين بطريقةٍ لافتةٍ للنّظر، وذلك تبعاً لرفضهم كثيراً من الأمثلة العربيّة الصّحيحة، ونتيجةً لمحاولاتهم المتكرّرة إخضاع الأمثلة العربيّة الصّحيحة لأقيستهم النّظريّة البحت»[1]

وربّما كان لكلّ فريق عذرٌ فيما ذهب إليه، إذ لو كان البصريّون - وهم أوائل النّحاة – الذين نهضوا بالعربيّة – متساهلين في الرّواية عن مختلف الأعراب في البوادي والأمصار، لانتفى التّقعيد النّحوي، وربما اختلفت التّقديرات باختلاف الرّوايات، والأمر نفسه بالنّسبة للكوفيّين، الذين بدا لهم أن التّشديد قد يُخرج العديد من الشّواهد من دائرة التّقعيد النّحويّ، رغم كونها صحيحةً بوجهٍ من الوجوه.

«على أنّه ينبغي أن نعرف أنّ المدرسة البصريّة حين نَحّت الشواذّ عن قواعدها؛ لم تحذفها ولم تسقطها، بل أثبتتها، أو على الأقل أثبتت جمهورها، نافذةً في كثيرٍ منها إلى تأويلها، حتّى تنحّي عن قواعدها ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أنّ خللاً يشوبها، وحتّى لا يغمض الوجه الصّحيح في النّطق على أوساط المتعلّمين، إذ قد يظنّون الشاذّ مستقيماً، فينطقون به، ويتركون المطّرد في لغة العرب الفصيحة، وتصاريف عباراتهم وألفاظهم»[2]

وإذا كان اعتماد البصريّين منصبّاً على القياس، والكوفيّين على السّماع، فإنّ نحاة الأندلس قد آثروا السّماع على القياس، تماشياً وتيسير النّحو، والابتعاد - ما أمكن - عن التّأويل، الذي قد لا يخدم الشّاهد النّحويّ، خصوصًا إذا كان بعيداً.

«لذلك، فلا غرابة أن يتوجّه الأندلسيّون إلى الكوفيّين للإفادة منهم في منهجهم النّحوي، إذا كان يحقّق رغبةً ما فتئت تتأصّل في أعماق النّفس الأندلسيّة، قوامها الاعتداد الكامل بالنّص والاحتماء به. ولا يعني ذلك أنّ المنهج البصريّ لم يلق قبولًا من الأندلسيّين، بل العكس هو الصّحيح، ولكن مع ملاحظة مهمّة، مفادها أن أولئك المحتفين بالمنهج

[1] - أحمد مختار عمر، المرجع نفسه، ص: 138.
[2] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 162.

البصريّ لم يمنعهم ذلك من ردّ بعض الآراء لأئمّة البصريّين؛ إذا رأوا أنّ المسموع عن العرب لا يسندها»[1]

3 - الجمع بين النّحو وغيره من الفنون

مما يلفت النّظر في أصحاب المنهج الكوفيّ، أنّهم كانوا يشتغلون على علومٍ أخرى غير النّحو، بمعنى أنّ بعضهم لم يكن مختصًّا في النّحو فقط، «فعند الرّجوع إلى ما وصل إلينا من مصنّفات الكوفيّين، يجد الباحث أنّها أبعد ما تكون عن الخلوص للنّحو بمعناه الاصطلاحيّ؛ ففيها رواياتٌ في القراءات، ومعاني القرآن، ونوادر أدبيّة، وغرائب ألفاظ، وأقوالٌ نحويّةٌ منثورةٌ، لا يربط موضوعاتها رابطٌ. ولعلّ من أوضح الأمثلة على ذلك. كتاب (معاني القرآن) للفرّاء، وأمالي ثعلب ... ولعلّ من أسباب ذلك أنّ كثيرًا من الكوفيّين كانوا يجلسون إلى الخلفاء، ويقومون بتأديب أولادهم»[2].

ونلاحظ على نحاة الأندلس أنهم مثل الكوفيّين، بمعنى أن معظمهم كان يشتغل على علومٍ متنوّعةٍ، لعلّ أبرزها علم القراءات والحديث، ذلك أنّنا نجد بعض مؤلفاتهم ذات مواضيع متنوعةٍ، ومن أمثلة ذلك كتاب "الأمالي" لـــ"لقاليّ"، الذي جمع بين اللّغة، والأخبار، والشعر، والغريب، وغير ذلك من المسائل، يقول في مطلب الكلام على مادّة نَسَأَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا نَنْسَخْ) الآيَةُ، (وإنّما النّسْءُ زِيَادَة) الآية: «قرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾[3] [**نَنْسَأْهَا: هي قراءة أبي عمرو**]عَلَى مَعْنَى: أَوْ نُؤَخِّرْهَا. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: نَسَأَ اللهُ فِي أَجَلِكَ، وَأَنْسَأَ اللهُ أَجَلَكَ، أَيْ أَخَّرَ اللهُ أَجَلَكَ. وقال النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم-: "مَنْ سَرَّهُ النَّسَاءُ فِي الْأَجَلِ والسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ" والنّساء: التّأخير»[4].

وعليه نستنتج:[5]

---

[1] - درين، محمّد بن عمّار، تأثير الكوفيّين في نحاة الأندلس، ص: 801.
[2] - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
[3] - سورة البقرة، 106.
[4] - القاليّ، الأماليّ، ج1، ص: 24.
[5] - الهيتيّ، عبد القادر رحيم، خصائص مذهب الأندلس النّحويّ، خلال القرن السّابع الهجريّ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2، 1993، ص: 41.

1 – أنّ كتاب "سيبويه" وُجِد في الأندلس مع وجود كتاب "الكسائيّ"، إن لم يكن قبله، إلا أنّه لم يشتهر فيها أوّل الأمر، وبقي كذلك إلى أن رحل "الأفشنيق" إلى المشرق، وعاد إليها حافظاً له، فأظهره هناك، واشتهر منذ ذلك الوقت.

2 – أنّ للنّحو البصريّ الأثر الكبير على نحاة الأندلس على مرّ العصور.

3 – أنّ النّحو الكوفيّ - الذي اشتهر هناك قبل النّحو البصريّ، واختفى نسبيًّا بعد ظهور واشتهار النّحو البصريّ – لم يندثر كل الاندثار هناك، بل بقي له أثرٌ على مرّ العصور، حتّى في القرن السّابع الهجريّ.

4 – من هنا؛ فإنّ النّحو في الأندلس كان - خلال القرنين الثّالث والرّابع للهجرة - نحوًا بصريًّا كوفيًّا، ولم يخلص لأحدهما دون الآخر.

5 – أنّ لنحاة الأندلس عنايةٌ فائقةٌ بكتاب سيبويه، الممثّل للنّحو البصريّ منذ ظهوره واشتهاره هناك، وعلى مدى العصور التّالية لذلك.

الفصل الثاني: من أعلام المدرسة النّحويّة الأندلسيّة

المبحث الأوّل: شروح الكتاب وشواهده، في الأندلس

المبحث الثّاني: شرح الأعلم الشّنتمريّ للكتاب، وشواهده

أوّلاً : النّكت في تفسير كتاب سيبويه

ثانياً: تحصيل عين الذّهب، من معدن جوهر الأدب

المبحث الثّالث: ابن مضاء، وثورته على النّحاة

1 – ترجمته

2 – كتاب "الرّدّ على النّحاة"

المبحث الرّابع : ابن عصفورٍ الإشبيليّ

1 - ترجمته

2 – ابن عصفورٍ، والمذهب البصريّ

3 - كتاب المقرّب

4 - عنايته بالتّصريف

5 – مقدّمة كتاب "الممتع"

المبحث الخامس: ابن مالك الأندلسيّ

1 – استشهاده بالحديث الشّريف

2 – منظوماته النّحويّة

المبحث الأوّل: شروح الكتاب وشواهده في الأندلس

سنحاول - في هذا الفصل - الحديث عن بعض أعلام المدرسة النّحويّة في الأندلس، من خلال عرض نماذج من آرائهم، وكيفيّة تعاملهم مع المسائل والآراء النّحويّة التي ميّزت المدارس السّابقة، من بصريّة، وكوفيّة، وبغداديّة، وقد ضمّنّا ذلك الحديث عن نماذج من الشّروح، التي ألّفت حول "كتاب" سيبويه وشواهدِه الشّعريّة، في بلاد الأندلس، وهو موضوعٌ ثريٌّ وخصبٌ؛ ذلك أنّ "سيبويه" لم يكن مجرّد نحويٍّ بصريٍّ، بل كان إماماً في الدّرس النّحويّ، على مرّ العصور.

وقد عرف كتابه - الذي لم يضع له عنواناً - إقبالاً منقطع النّظير، سواء من نحاة البصرة أو من غيرها، ذلك أنّنا نجد اهتماماً به من طرف الكوفيّين والبغداديّين والمصريّين، بل ومن طرف نحاة العدوتين، فقد عُرف الكتاب في المغرب والأندلس، بفضل تلك الرّحلات العلميّة، التي كان يقوم بها المؤدّبون، سواءٌ في مواسم الحجّ أو في غيرها من المواسم، وقد ترك لنا المترجمون أسماء هؤلاء الأندلسيّين، الذين اتخذوا بغداد، ومصر، وغيرهما من المدن وجهة لهم.

أمّا فيما يخصّ منهجه في الكتاب، فيمكن القول إنّه كان جامعاً لآراء السّابقين من النّحويّين البصريّين، إضافة إلى تصحيح بعض ما رآه مجانباً للصّواب، وهذا ما أشار إليه العسكريّ بقوله:

«ثمّ جمع سيبويه علم البُرعاء من النّحويّين القدماء كلّهم، فذكر في كتابه مذهب الخليل، ومذهب يونس، ومذهب أبي عَمرٍ، ومذهب ابن أبي إسحاق، وذكر مذاهب قومٍ غير هؤلاء، على أنّه لم يرتضها فدفعها، وصحّح علم النّحويّين القدماء كلِّهم، وجمع الأبنية كلّها. فزعموا أنّه لم يذهب عليه من كلام العرب إلّا ثلاثة أشياءٍ، (شَمَنْصِير) وهو اسم موضع، و(هُنْدَلِع) وهي بقلة. و(دُرْداقس)- وهو عظيم الرّأس في مؤخّرة ممّا يلي الفقار»[1]

[1] - العسكريّ، أبو أحمد الحسن بن عبد الله، المصون في الأدب، تح: عبد السّلام محمّد هارون، سلسلة التّراث العربيّ، ع3، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1994، ص: 119-120.

وقد كان الاهتمام بـــ"الكتاب" بارزاً؛ من خلال الشّروح والتّعليقات التي ألّفت حوله، سواءٌ في المشرق أو المغرب، لكنّنا سنكتفي هنا بذكر بعض شروحه بالأندلس – على وجه التّحديد – ذلك أنّ هذه الشّروح والتعليقات لم تكن أقلّ شأناً من مثيلاتها في سائر الأصقاع، «ورغم أنّ النّحويّين الأندلسيّين الأوائل كانوا أكثر إقبالاً على الكوفة؛ بسبب إقبالهم على القراءات، فإنّ كتاب سيبويه احتلّ عندهم مكان الصّدارة، من حيث الدّرس والحفظ والشّرح والتّعليق عليه، فشرحه عددٌ كبيرٌ، منهم: أبو بكرٍ الخشنيّ، وابن الطّراوة، وابن خروفٍ، وابن الباذش، وابن الضّائع، وغيرهم»[1]

وقد ساهمت الرّحلات العلميّة في انتشار الكتاب في ربوع البلاد الأندلسيّة، «فقد شغف به الأندلسيّون والمغاربة من هذا الحين، وتنافسوا في إظهاره، إذ كان حِفظه عندهم شارة النّبوغ في العربية، فمن حَفَظَتَه حمدون النّحويّ القيروانيّ[2]، وخَلَف بن يوسف الشّنتيريّ وغيرهما، وعنوا بشرحه والتّعليق عليه، فشرحه منهم أبو بكرٍ بن الخشنيّ، وابن الطّراوة، وابن خروفٍ، وابن الباذش، وغيرهم. وما انفكّت العناية به تزداد تترى، حتى انتهت رياسة النّحو إلى ابن الضّائع؛ فقد شرح كتاب سيبويه، وأبدى مشكلاتٍ فيه عجيبة».[3]

وسنورد بعض أصحاب الشّروح الأندلسيّة للكتاب. بما في ذلك شروح الشّواهد، والنّكت، والتّعليقات، والاستدراكات

أوّلاً: الشّروح

1 – شرح أحمد بن أبان بن سيّد اللّغوي الأندلسيّ، المتوفّي سنة (382 ه):

والمؤلِّف – كما ذكر القفطيّ - هو «صاحب الشّرطة بقرطبة، يكنّى أبا القاسم. عالمٌ فاضلٌ لغويٌّ. روى عن أبي عليٍّ البغداديّ، وسعيد بن جابرٍ الإشبيليّ، وغيرهما. وحدّث

[1] - عبده الرّاجحي، دروس في كتب النّحو، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، 1975، ص: 169.
[2] - محمّد بن إسماعيل، نشأ بالقيروان، أوّل من عُرف بحفظ كتاب سيبويه، توفّي بعد سنة 200 ه (الطّنطاويّ، أحمد، نشأة النّحو، وتاريخ أشهر النّحاة، دار المعارف، ط2، د.ت، ص: 226).
[3] - الطّنطاويّ، نشأة النّحو، ص: 221.

بكتاب "الكامل" عن سعيدٍ بن جابر، وأخذ عنه أبو القاسم بن الإفليليّ، وأخذ عن أبي عليّ كتاب النّوادر وغير ذلك».[1]

2 – شرح أبي الحسن عليّ بن أحمد بن خلف الأنصاريّ الغرناطيّ، المعروف بابن الباذش[2] (444 – 528 ه): وهذا الشّرح هو الآخر في حُكم المفقود، غير أنّ صاحبه كان «أوحد في زمانه إتقاناً، ومعرفةً، وتفرّداً بعلم العربيّة، ومشاركةً في غيرها. حسنَ الخطّ، كبيرَ الفضل، مشاركاً في الحديث، عالماً بأسماء رجاله ونقَلته؛ مع الدّين، والفضل، والزّهد، والانقباض عن أهل الدّنيا».[3]

ويبدو أنّه اختصّ بالشّرح؛ فقام بشرح العديد من الكتب النّحويّة السّابقة، وهذا ما ذكره الطّنطاويّ، في ترجمته، إذ يقول: «شبّ على الفضيلة، والزّهدِ في الدّنيا، وبرع في الشّريعة والعربيّة؛ فأكبره لداته، بذل همّته في النّحو؛ فشرح أمّهات الكتب؛ إذ شرح "كتاب" سيبويه، و"الأصول" لابن السّراج، و"المقتضب" للمبرّد، و"الإيضاح" للفارسيّ، و"الجمل للزّجّاجيّ"، و"الكافيّ" للنّحّاس»[4]

3 – شرح أبي بكرٍ محمّدٍ بن مسعودٍ الخشنيّ الأندلسيّ الجيّانيّ، المعروف بابن أبي الرّكب: يقول ياقوت الحموي في شأنه: «نحويٌّ عظيمٌ من مفاخر الأندلس، لغويٌّ أديبٌ شاعرٌ ... كان متقناً لمسائل سيبويه؛ فرحل النّاس إليه؛ لقراءة "الكتاب" عليه، وانتقل بأخرة إلى غرناطة، فأقرأ بها، وولي الصّلاة والخطبة بجامعها. وله شرح كتاب سيبويه».[5]

4 – شرح أبي الحسن، عليٍّ بن محمّدٍ الحضرميّ، المعروف بابن خروفٍ الإشبيليّ[6]. المتوفّي سنة 606 ه: وقد كان هناك شخصيّتان لهما اسم ابن خروفٍ، أحدهما شاعرٌ، والآخر هو الذي نتحدّث عنه هنا، وقد كان الحضرميّ تلميذاً لأبي بكر محمّدٍ بن أحمد بن طاهرٍ

[1] - القفطيّ، أبو الحسن عليّ بن يوسف، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، القاهرة، مؤسّسة الكتاب الثّقافيّ بيروت، 66/1.
[2] - السّيوطيّ: بغية الوعاة 142/2، والقفطيّ: إنباة الرّواة: 227/2
[3] - السّيوطيّ، جلال الدّين عبد الرّحمن، بغية الوعاة في تراجم اللّغويّين والنّحاة، ج2، ص: 142.
[4] - الطّنطاويّ، نشأة النّحو، وتاريخ أشهر النّحاة، ص: 229 – 230.
[5] - الحمويّ، ياقوت، معجم الأدباء، ص: 2647، رقم التّرجمة: 1117،
[6] - السّيوطيّ، بغية الوعاة: ج2، ص: 203.

الأنصاريّ الإشبيليّ المعروف بالخدب[1] ، لـه شرحٌ علـى كتـاب سيبويه، سمّاه: "تنقيح الألبـاب في شرح غوامض الكتاب"،[2] «وهو كتـابٌ جليل الفائدة، حملـه إلـى صـاحب المغرب، فأعطـاه ألف دينار»[3].

وقد بسط فيه مختلف الآراء النّحويّة السّابقة، بما في ذلك العديد من آراء الكوفيّين، كمـا استشـهد بالحـديث الشّـريف، و كـان متـأثّراً بشـيخه أبـي بكـر بـن طـاهرٍ، الـذي ذكـره فـي عـدّة مواطن، «وقد دافع عن سيبويه بحماسٍ منقطـع النّظير، ضـدّ كلّ من نعتـه بمجانبـة الصّـواب، رافضاً أن تكون لأيّ كان منزلةٌ تفوق سيبويه أو تدانيه»[4]

ويشـهد لـه كتابـه بقدرتـه علـى التّحليـل والاسـتنباط، والموازنـة بـين الآراء المختلفـة، للخروج برأيه، الذي قلنا إنّه تأثّر فيه كثيراً بصاحب الكتاب، رغم أنّـه خالفـه في بعض الآراء، «وكان يذهب مذهب سيبويه، وأستاذه ابـن طـاهر، وابـن البـاذش؛ فـي أنّـه لا يجـوز حـذف أحـد مفاعيل "أعلم" و"رأى" بدون دليلٍ. وذهب مذهب سيبويه والمبرّد فـي أنّ نباتـاً فـي مثـل "أنبـت الزّرع نباتاً" منصوبٌ بفعل المصـدر الجـاري عليـه؛ وهـو نبـت مضـمراً، والفعـل الظّـاهر دليلٌ عليه»[5].

وسنورد مثالًا من كتاب "تنقيح الألباب" للحضرميّ، والذي يبدو فيـه متـأثّراً بشيخه أبـي بكر ابن طاهر، وذلك في "باب ما يرتفع بين الجزمين وينجـزم بينهمـا"، حيـث يقـول: «وأجـاز الأستاذ أبو بكرٍ في قوله: إِنْ تَأْتِنِي فأُحَدِّثَكَ، النّصـب من غير جوابٍ، وهـو الـذي منـع سيبويه، قال: قد يجوز النّصب في الشّعر، ويكتفي حملاً على المعنى، إذا كان واجباً فـي معنـى الحـديث، يريد أنّه من حيث يتقدّر بالشّرط، وهو واجبٌ بوقوع الأوّل يراعـي المعنـى، فيُجعل كـالمنقطع، ولا يُلتفت فيه إلى تقدير الاتّصال بالعطف، لأنّه تمثيل لا يُنطـق بـه، لمـا ذُكـر، وهـو جـائزٌ علـى هذا التّأويل، ولا يكون إلاَّ في الفاء»[6]

---

[1] - نحويٌّ مشهورٌ، حافظٌ بارعٌ، اشتهر بتدريس الكتاب فما دونه، وله على الكتاب طُررٌ مدوّنةٌ مشهورة،، اعتمدها تلميذه ابن خروفٍ في شرحه ... وكان من حذّاق النّحويّين، وأئمّة المتأخّرين، أجلّ من أخذ عنه ابن خروفٍ ومصعبٌ الخشنيّ ... مات في عشر الثّمانين وخمسمائة. (بغية الوعاة: 28/1)

[2] - ذكره الأستاذ عبد السّلام محمّد هارون بــ "مفتّح الألباب في شرح غوامض الكتاب"، (مقدّمة الكتاب، ص: 38).

[3] - الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، مطابع دار التّضامن، بغداد، ط1، 1967. ص: 220.

[4] - بديريّ، خليفة محمّد، قسم الدّراسة من تنقيح الألباب لابن خروفٍ، منشورات كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة، ، ص: 150.

[5] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 301.

[6] - ابن خروف، تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب، ص: 175.

5 – شرح أبي الفضل قاسمٍ بن عليٍّ بن محمّدٍ بن سليمانَ الأنصاريّ البطليوسيّ الشّهير بالصّفّار[1]، المتوفّي بعد سنة 630 ه: وقد «صَحِبَ الشّلوبين وابن عصفور، وشرح كتاب سيبويه شرحاً حسناً، يقال إنّه أحسن الشّروح»[2]، ورغم ذلك، فإنّ هناك من ذكر أنّه كان تلميذاً لهما، «وقد ادّعى الفيروزأباديّ[3] أنّ الرّدود الموجودة في شرح الكتاب للصّفّار ليست من رأي الصّفّار، وإنّما هو رأي ابن عصفور؛ الذي كان بينه وبين الشّلوبين منافرةٌ، لأنّ ابن عصفور كان شيخاً للصّفّار»[4]

ومن الأمثلة على ما ذكره الصّفّار في شرحه لكتاب سيبويه، ما نجده في رأيه حول "باب المسند والمسند إليه"، حيث «يرى الصّفّار أنّ موقعه من الأبواب في الكتاب يحتاج إلى تعليلٍ، فرأى أنّ سيبويه – بعد أن خلص من مناقشة المفردات؛ من اسمٍ، وفعلٍ، وحرفٍ، لجأ إلى المركّبات، ومنها المسند والمسند إليه. ثمّ أورد اصطلاحات أربعة للمسند والمسند إليه:

1 – إنّ المسند هو المبتدأ، وهذا هو الذي يريده سيبويه؛ لأنّه جعل المبتدأ في باب الابتداء مسندًا.

2 – عكس الأوّل؛ وهو أنّ المسند إليه هو الأوّل، والمسند هو الثّاني.

3 – أن يكون كلّ واحدٍ منهما مسندًا، ومسندًا إليه؛ لأنّ كلّ واحدٍ منهما قد أضيف إلى الآخر، وأضيف الآخر إليه.

4 – إنّ المسند إليه هو المخْبَر عنه، والمسند هو المخبِر؛ بمعنى أنّ المبتدأ والفاعل قد أُسند إليهما الخبر.»[5]

6 - شرح أبي عليٍّ عمرَ بن محمّدٍ بن عبد الله الإشبيليّ المعروف الشّلوبين: وقد «كان إمام عصره في العربيّة بلا مدافع، وآخر أئمّة هذا الشّأن بالمشرق والمغرب، ذا معرفةٍ بنقد

[1] - ترجمته في: السّيوطيّ، بغية الوعاة، 256/2. الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، ص: 226.
[2] - السّيوطيّ، بغية الوعاة، 256/2.
[3] - الكاتب الفارسيّ المعروف، صاحب: القاموس المحيط، والبلغة في أئمّة النّحو واللّغة.
[4] - الدّنّاع، محمّد خليفة، المختار من شرحَيْ ابن خروفٍ والصّفّار لكتاب سيبويه، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط1، 1996، ص: 12.
[5] - الدّنّاع، محمّد خليفة، المختار من شرحَيْ ابن خروفٍ والصّفّار لكتاب سيبويه، ص: 18.

الشّعر وغيره، بارعاً في التّعليم، ناصحاً ... أقرأ نحو ستّين سنةً، وعلا صيته، واشتهر ذكره، وبرع من طلبته جلّة»[1]

وقد ذكر القفطيّ أن الشّلوبين قد صنّف شرحاً على الكتاب، كما صنّف شرحاً للجزوليّة[2] ، لكنّه قال بعد ذلك: «والذي وقع لي أنّه غير عاشقٍ في هذه الصّناعة، وإنّما يريدها للارتزاق، وذلك أنّه لمّا قدم علينا أبو العبّاس أحمد بن مفرج بن الرّوميّة العشّاب الإشبيليّ[3] ... أخبرني أنّه لمّا عزم على الخروج إلى المشرق للحجّ، ابتاع من عمر الشّلوبينيّ الأندلسيّ كتاب "العالم في اللّغة" لأحمد بن أبان»[4]

7 - شرح أبي العبّاس أحمد بن محمّدٍ بن أحمد الأزديّ الإشبيليّ، عُرف بابن الحاج، المتوفّي سنة 647 ه[5] : من تلاميذ الشّلوبين، وقد ذكره السّيوطيّ بقوله: «قرأ على الشّلوبين وأمثاله. وله على كتاب سيبويه إملاءٌ، ومصنّفٌ في الإمامة، وفي علم القوافي، ومختصر خصائص ابن جنّي، ومصنّفٌ في حكم السّماع، ومختصر المستصفى . وله حواشٍ في مشكلاته، وعلى سرّ الصّناعة، وعلى الإيضاح، ونقود على الصّحاح، وإيرادات على المقرّب»[6]

8 - شرح أبي بكرٍ بن يحيى بن عبد الله الجذاميّ المالقيّ النّحويّ المعروف بالخفّاف[7]، المتوفّي بالقاهرة سنة 657 ه: وهو من تلاميذ أبي عليّ الشّلوبين، قال السّيوطيّ: «قرأ النّحو على الشّلوبين، وكان نحويّاً بارعاً، ورجلاً صالحاً مباركاً صنّف: شرح سيبويه، شرح إيضاح الفارسيّ، شرح لمع ابن جنّي، وينسب إليه الكتاب المجهول في الفقه على مذهب مالكٍ، فإنّه وُجِدَ في كُتبه بخطّه غيرَ منسوبٍ؛ فيرون أنّه من تصنيفه»[8]

---

[1] - الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، ص: 232.

[2] - المقدّمة الجزوليّة في النّحو، لعيسى بن عبد العزيز الجزوليّ.

[3] - أبو العبّاس أحمد بن محمّدٍ بن مفرج النّباتيّ، ويعرف بابن الرّوميّة، سمع أبا بكرٍ بن الجدّ، وأبا عبد الله بن زرقون، وابن حمويه، وغيرهم، أجاز له ابن عُبَيد الله، وابن الحكم، وابن الشّيخ، وابن سمعون، وأبو زكريّا الدّمشقيّ، كان فقيهاً ظاهريّاً متعصّباً لابن حزم، كان بصيراً بالحديث عالماً به، مولده في شهر المحرّم الحرام، سنة إحدى وستّين وخمسمائة، وتوفّي ليلة الإثنين من شهر ربيع الأوّل، سنة سبع وثلاثين وستّمائة (عن القفطيّ، إنباه الرّواة، ج2، هامش ص: 333.

[4] - القفطيّ، إنباه الرّواة، 2/333-334.

[5] - كتاب سيبويه، مقدّمة عبد السّلام هارون، ص: 39.

[6] - السّيوطيّ، بغية الوعاة، 1/359.

[7] - ترجمته في: بغية الوعاة، ج1، ص: 473.

[8] - السّيوطيّ، بغية الوعاة، ج1، ص: 473.

9 – شرح أبي الحسن عليّ بن محمّدٍ بن عليّ بن يوسف الكتاميّ الإشبيليّ، المعروف بابن الضّائع، المتوفّي سنة 680 ه: وهو من تلاميذ الشّلوبيني؛ فقد «أخذ عنه كتاب سيبويه بين قراءةٍ وسماعٍ، ثمّ فاق أترابه، وأبدع في التّصنيف، له شرحٌ على سيبويه، جمع فيه بين شرحَي السّيرافيّ وابن خروفٍ، مع الاختصار الحسن، وله مشكلاتٌ عجيبةٌ، أبداها في كتاب سيبويه»[1]

10 – شرح أثير الدّين محمّدٍ بن يوسف بن عليٍّ المعروف بابي حيّان الأندلسيّ الغرناطيّ: صاحب تفسير البحر المحيط، «وكان أبو حيّان يُجلّ سيبويه، ويكره ويعادي من يمسّه بسوء، وإن كان من أخلص أصدقائه، وأوفى خلّانه، أو من أجلّ شيوخه، كما فعل مع ابن تيميّة، الذي كان يقدّره، حتّى إذا ما تعرّض ابن تيميّة لسيبويه تركه أبو حيّان، وأظهر له العداء. وكان أبو حيّانٍ يعدّ كتاب سيبويه من أجلّ كتب النّحو»[2]

ثانياً: شروح الشّواهد

المقصود بشروح الشّواهد – كما هو واضح من العنوان – هو الشّروح التي قام بها أصحابها، بغرض شرح الشّواهد الشّعريّة، التي ذكرها سيبويه في ثنايا أبواب الكتاب، وهي تختلف عن شروح أبواب الكتاب؛ لأنّها تتعلّق بالأبيات الشّعريّة، ولا تتعلّق بالمسائل النّحويّة، وهذا لا يعني أنّها خارجة عن موضوع النّحو، بل هي ذات صلة وثيقة به، لأنّ شرح البيت – أو الشّاهد – يتضمّن تبسيطًا للمسألة النّحويّة المتلّقة به، وسنورد بعض الأمثلة للشّروح التي عنيت بالشّواهد الشّعريّة في الأندلس:

1 – شرح أبن جندل هارون بن موسى بن صالح القيسيّ القرطبيّ: وقد ذكره كلّ من السّيوطي، والقفطيّ وابن بشكوال، «أصله من مَجريط، سمع من أبي عليٍّ القاليّ البغداديّ وغيره. كان رجلاً صالحاً صحيح الأدب؛ يختلف إليه الأحداث ووجوه النّاس في طلب العلم؛ ولقي شيوخاً جلّة. روى عنه أبو عمر بن عبد البرّ وطبقته؛ وله تصنيف في "تفسير عيون كتاب سيبويه"»[3].

[1] - الطّنطاويّ، نشأة النّحو، وتاريخ أشهر النّحاة، ص: 263.
[2] - الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، ص: 240.
[3] - القفطيّ، إنباه الرّواة، 362/3.

فابن صالحٍ القيسيّ كان من طلبة القاليّ صاحب "النّوادر" و"الأمالي"، وغيره من شيوخ اللّغة والنّحو، ممّا يجعله مؤهّلاً للتّأليف في النّحو، والمسائل المتعلّقة به، ولعلّ كتابه المذكور من أبرز المؤلّفات التي عنيت بالتّاليف في شرح شواهد الكتاب.

ولم نطّلع على هذا الكتاب حتّى يتسنّى لنا معرفة منهج صاحبه، لكن يُذكر أنّ «القرطبيّ لا يفسّر جميع كلام سيبويه، وإنّما يختار من كلّ بابٍ المواضع التي يرى أنّها بحاجةٍ إلى تفسيرٍ، فيفسّرها، ثمّ ينتقل إلى غيرها. وربّما يترك باباً أو أكثر، دون أن يفسّر منه شيئاً؛ لعدم الحاجة إلى التّفسير في نظره»[1].

وعلى العموم، فإن القرطبيّ قد حاول تبسيط بعض المسائل النّحويّة، وذلك بتفسير الشّواهد التي بدت له بحاجةٍ إلى تفسيرٍ، أكثر من غيرها، كما فعل غيره من أصحاب الشّروح، سواء المذكورين في شرح أبواب الكتاب، أو الذين سنأتي على ذكرهم فيما يلي.

2 – شرح محمّدٍ بن هشامٍ بن خلفٍ اللّخميّ الأندلسيّ المتوفّي سنة 560 ه: وهو من شرّاح شواهد الكتاب، وقد ذكره السّيوطيّ بقوله: «وله تآليف مفيدةٌ استعملها النّاس؛ منها كتاب الفصول، والمجمل في شرح أبيات الجُمل، نكتٌ على شرح أبيات سيبويه للأعلم، ولحن العامّة، وشرح الفصيح، وشرح مقصورة ابن دريد»[2].

3 – شرح أبي عبد الله محمّدٍ بن عليّ بن محمّدٍ بن إبراهيم المالقيّ المعروف بالشّلوبين الصّغير[3]، المتوفّي سنة 660 ه: كان تلميذًا لابن عصفور، «أخذ العربيّة والقراءاتِ عن عبد الله بن أبي صالحٍ، ولازم ابن عصفور مدّة إقامته بمالقة، وأقرأ ببلده القرآن والعربيّة. كمّل شرح شيخه ابن عصفور على الجزوليّة، وشَرَحَ أبياتَ سيبويه»[4]

ثالثاً: النّكت والتّعليقات

[1] - خالد عبد الكريم جمعة، شواهد الشّعر في الكتاب، الدّار الشّرقية للطّباعة والنّشر والتّوزيع، مصر الجديدة، ط2، 1989، ص: 72.
[2] - السّيوطيّ، بغية الوعاة، 49/1.
[3] - ترجمته في: السّيوطيّ، بغية الوعاة في تراجم اللّغويّين والنّحاة، ج1، ص: 187 . ومقدّمة الكتاب، لعبد السّلام هارون، ص: 42.
[4] - الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، ص: 255.

زيادةً على الشّروح المذكورة سابقاً، سواءً شروح الكتاب، أو شواهده، فإنّ هناك من الأندلسيّين وغيرهم ممّن ألّف كتباً تعنى بالنُّكت، والتّعليقات، وهي أن يعلّق الشّارح على مسألة من المسائل، التي يرى أنّها بحاجة إلى توضيحٍ أو تفسيرٍ، من ذلك كتاب:

1 – أبي الحسين سليمان بن محمّدٍ بن عبد الله الشّيبانيّ المالقيّ المعروف بابن الطّراوة[1]، المتوفّي سنة 528 ه: يعتبر من أبرز نحاة الأندلس، وهو من تلاميذ الأعلم الشّنتمريّ، «كان علماً في العربيّة لعصره، وتجوّل في مدن الأندلس معلّماً يقبل عليه الطّلّاب من كلّ فجّ، ومن مصنّفاته في النّحو "المقدّمات على كتاب سيبويه". ويبدو أنّه كان يقابله كثيراً على كتب الكوفيّين والبغداديّين منحازاً إليهما ... وممّا اختاره من مذهب الكوفيّين أنّ المعرفة أصل والنّكرة فرع، وكان سيبويه والجمهور يذهبون إلى العكس»[2].

ومن الممكن أن يكون قد قام في كتابه المذكور بالتّعرّض لبعض المشكلات التي رأى أنّها بحاجة إلى توضيحٍ في كتاب سيبويه، فحاول تبسيطها، حتّى تكون مدخلاً لمن أراد قراءة الكتاب.

وقد «عُنِيَ ابن الطّراوة في هذا المؤلّف بشرح منهج سيبويه في تأليفه للكتاب، وشمل على مسائل تحلّ مشكلاته المعقّدة، يساعد فيها الدّارسين المهتمّين به، وبفهمه. إلّا أنّه تعرّض فيه إلى ذكر آرائه أيضاً، وهي التي خالف فيها سيبويه، وغيرَه من النّحاة. إضافة إلى تفرّده ببعض الآراء التي خالف فيها جمهور النّحاة، من المشرق، والمغرب، والأندلس»[3]

رابعاً: الاستدراكات

استدراك أبي بكرٍ محمّد بن الحسن بن عبد الله الزّبيديّ الإشبيليّ المتوفّي سنة 379 ه: وهو صاحب كتابَي لحن العوامّ، وطبقات اللّغويّين والنّحويّين، وقد ألّف استدراكاً على كتاب سيبويه، يقول في مقدّمته:

[1] - ترجمته في: بغية الوعاة، 602/1. وقد ذكر محقّق كتاب سيبويه أن لابن الطّراوة اعتراضات على الكتاب، ينظر: الكتاب، 43/1.
[2] - شوقي، ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 296.
[3] - يحياويّ، حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدّرس النّحويّ، ص: 151 – 152.

«وَكَانَ جِلَّةُ الْمَشَايِخِ مِنْ أَهْلِ النَّحْوِ، فِيمَا رَوَيْنَا عَنْهُمْ، يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا أَلَّفَهُ سِيبَوَيْهُ مِنْهَا يَسْتَوْفِي جَمِيعَ أَبْنِيَةِ الْكَلَامِ مَا خَلَا ثَلَاثَةِ أَبْنِيَةٍ، شَذَّتْ عَنْ جَمِيعِهِ، فَاسْتَقْصَيْتُ الْبَحْثَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ فِيهِ، فَأَلْفَيْتُ نَحْوَ الثَّمَانِينَ بِنَاءً لَمْ يَذْكُرْهَا سِيبَوَيْهُ فِي أَبْنِيَتِهِ، وَلَا دَلَّ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ بَعْدَهُ، فَرَأَيْتُ أَنْ أُفْرِدَ فِي الْأَبْنِيَةِ كِتَاباً أُلَخِّصُ ذِكْرَهَا فِيه»[1].

المبحث الثّاني: شرح الأعلم الشّنتمريّ للكتاب، وشواهِده

يعدّ الأعلم الشّنتمريّ من أبرز علماء اللّغة في الأندلس، ذكره السّيوطيّ بقوله: «كان عالماً بالعربيّة واللّغة ومعاني الأشعار، حافظاً لها، حسنَ الضّبط لها، مشهوراً بإتقانها، رحل إلى قرطبة، وأخذ عن إبراهيم الإفليليّ[2]، وصارت إليه الرّحلة في زمانه. ولد سنة عشر وأربعمائةٍ، ومات سنة ستّ وسبعين وأربعمائة»[3].

وقد تميّز الأعلم بسعة علمه، وحفظه للأشعار، متأثّراً في ذلك بشيخه ابن الإفليليّ، نلمس ذلك من خلال شرحه لأشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين، «وهي اختيارات من بليغ الشّعر. لأشهر الشّعراء الجاهليّين؛ وهم ستّة: امرؤ القيس بن حجرٍ الكنديّ، وعلقمة بن عبدة التّميميّ. والنّابغة الذّبيانيّ؛ وزهير بن أبي سلمى المزنيّ، وطرفة بن العبد البكريّ، وعنترة بن شدّاد العبسيّ. وهؤلاء الشّعراء هم أظهر من يستشهد بشعرهم في الأدب، واللّغة، وعلوم العربيّة، وفنون البيان»[4]

كما أنّ له شرحاً لديوان "طرفة بن العبد" مطبوع[5]، وكتاب فحول العرب في علم الأدب، شرح ديوان علقمة بن عبد الفحل[1]، باعتناء الدّكتور محمّد بن أبي شنب، وكتاب

[1] - الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، ص: 277.
[2] - أبو القاسم، إبراهيم بن محمّد بن زكريّا الزّهريّ الأندلسيّ، (352 – 441) صاحب كتاب "شرح شعر المتنبّي"
[3] - السّيوطيّ، بغية الوعاة، 356/2.
[4] - الشّنتمريّ الأعلم، أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين، تح: محمّد عبد المنعم خفاجيّ، ط3، 1963، ج1، تقدمة المحقّق، ص: 4.
[5] - تح: دريّة الخطيب ولطفي الصّقّال، عن دائرة الثّقافة والفنون، البحرين، والمؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 2000.

الحماسة، وشرح ديوان أبي تمّام، «وأهمّ من ذلك أنّه روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليليّ، وأقرأه لطلاّبه مبصراً لهم بدقائقه، مذلّلاً صعابه، محلّلاً مشاكلهُ تحليلًا واسعاً. ويتوافر الأندلسيّون من حوله، ومن بعده، على هذا الكتاب، حتّى يشتهر في العالم العربيّ، أنّ بيئة عربيّة لا تبلغ بيئة الأندلس، في تحرير نصّه، وكشف غوامضه، ممّا جعل الزّمخشري يرحل في شبيبته من خوارزم إلى مكّة، لقراءته على نحويٍّ أندلسيٍّ كان مجاوراً بها، هو عبد الله بن طلحة المتوفّي سنة 518 للهجرة»[2].

وبالنّسبة لشرح الأعلم على كتاب سيبويه، فقد أسماه: "النُّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفيّ من لفظه، وشرح أبياته وغريبه"، وقد جاء منهجه كما يلي (حسب ما ذكره المحقّق في المقدّمة):

1 – تراجم الأبواب:

من الواضح أنّ الأعلم في النّكت لم يأت على شرح جميع أبواب كتاب سيبويه، وإنّما اختار منه نسبةً معيّنةً، وهذه الأبواب المشروحة ليست بنفس القدر من الشّرح، إذ يطنب في بعض الأبواب، ويوجز في أخرى، «فقد وردت ترجمة ستّة وثلاثين وثلاثمائة بابٍ (336) من مجموع واحدٍ وسبعين وخمسمائة (571) ترجمةً، ولم يشرح الأعلم كلّ بابٍ ذكر ترجمته»[3]

2 – نصوص الكتاب:

يذكر الأعلم نصّ الكتاب المراد شرحه، أمّا إذا كان النّصّ طويلاً، فإنّه يذكر أوّله وآخره، وبينهما عباراتٌ مثل، "إلى قوله"، مثل: «قال سيبويه: "اعلم أنّك إذا ثنّيت الواحد لحقته زيادتان" إلى قوله "فكأنّ هذا أغلب وأقوى"»[4].

ومعنى ذلك أن الشّنتمريّ كان يقوم بذكر أوّل النّصّ وآخره، وذلك في الحالة التي يكون فيها النّصّ المراد شرحه طويلاً، محيلاً القارئ على مراجعته من كتاب سيبويه، إذا أراد

[1] - هناك طبعة أخرى، عن دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت.
[2] - شوقي، ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 294.
[3] - الشّنتمريّ، الأعلم، النّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفيّ من لفظه، وشرح أبياته وغريبه، تح: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، 1999، ج1، ص: 81.
[4] - المصدر نفسه، ج1، ص: 184

الوقوف عليه كاملاً، وذلك بغية فهم المسألة، أو المسائل المراد شرحها، وكذا تخفيفاً عليه، إذ لو أورد النّصوص كاملةً في شرحه، فإن كتابه سيتضخّم بنصوصٍ هي في الأصل لسيبويه.

3 – التّقديم للأبواب:

حرص الأعلم على التّقديم لكل بابٍ يشرحه، مثل قوله في "باب ما يحتمل الشّعر":

«اِعْلَمْ أَنَّ سِيبَوَيْهَ ذَكَرَ فِي هَذَا الْبَابِ جُمْلَةً مِنْ ضَرُورَةِ الشِّعْرِ؛ لِيَرَى الْفَرْقَ بَيْنَ الْكَلَامِ وَالشِّعْرِ، وَلَمْ يَتَقَصَّهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَصِلَ الْبَابَ بِالْأَبْوَابِ التِي تَقَدَّمَتْ، فِيمَا يَعْرِضُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمَذْهَبِهِمْ فِي الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُور»[1].

فالتّقديم في هذا الباب، وفي غيره، غرضه التّعريف بما قام به سيبويه، وذلك قصد إحالة القارئ على المسألة كما جاءت لدى صاحب الكتاب، حتى يتسنّى له الوقوف على الشّرح، الذي يستهدف تبسيط المسائل، وبسط الكلام فيها، من قبل صاحب النّكت.

أما كتاب "تحصيل عين الذّهب، من معدن جوهر الأدب، في علم مجازات العرب"، والذي خصّصه الأعلم لشرح أبيات الكتاب، فقد ذكر صاحبه الدّافع إلى تأليفه، وذلك في مقدّمة كتابه، في قوله:

«هَذَا كِتَابٌ أَمَرَ بِتَأْلِيفِهِ، وَتَلْخِيصِهِ، وَتَهْذِيبِهِ، وَتَخْلِيصِهِ الْمُعْتَضِدُ بِاللهِ الْمَنْصُورُ بِفَضْلِ اللهِ، أَبُو عَمْرٍو عَبَّادُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ، أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَعَلَاءَهُ ... أَمَرَ – أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ وَأَعَزَّ سُلْطَانَهُ وَنَصَرَهُ – بِاسْتِخْرَاجِ شَوَاهِدِ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، أَبِي بِشْرٍ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ قُنْبُرٍ – رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ – وَتَخْلِيصَهَا مِنْهُ، وَجَمْعَهَا فِي كِتَابٍ يَخُصُّهَا وَيُفَصِّلُهَا عَنْهُ»[2] .

[1] - الشّنتمريّ، المصدر السّابق، ج1، ص: 205.

[2] - الشّنتمري، أبو الحجّاج يوسف، الأعلم، تحصيل عين الذّهب، من معدن جوهر الأدب، في علم مجازات العرب، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 57.

منهجه في الشرح[1].

لا شكّ أنّ الأعلم الشّنتمريّ - في شرحه لشواهد الكتاب -، قد اتّبع منهجاً معيّناً، وسار عليه، من البداية إلى النّهاية، وذلك قصد الإلمام بجميع الأدوات، التي تساعد القارئ على فهم المقصود من البيت، أو الشّاهد المذكور في كتاب سيبويه، وما يتعلّق بذلك، من حيث المناسبة التي قيل فيها، إضافة إلى إعرابه كلّيًّا أو جزئيًّا، وذلك بإعراب بعض مكوّناته، التي يقع فيها اللّبس، إضافةً إلى شرح المسألة النّحويّة، التي ورد في سياقها. وسنورد هنا العناصر التي قام عليها منهج الأعلم:

1 – ردّ الشّواهد الشّعريّة إلى بابها:

بمعنى أنّه كان حريصاً على ذكر الباب الذي ذُكر فيه الشّاهد من الكتاب، حتى يسهل الوصول إليه من قبل القارئ، مثل قوله في الشاهد رقم 20:

«وأنشد سيبويه في باب ترجمتُه: هذا باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول، لساعدةَ بن جؤبة الهذليّ[2]:

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ»[3]

2 – الالتزام بترتيب سيبويه:

بمعنى أن شروح الشّواهد في تحصيل عين الذّهب جاءت مرتّبة، حسب ترتيب الشّواهد نفسها في كتاب سيبويه، مثل الشّواهد الأولى المذكورة كما يلي:

الشّاهد	الكتاب	تحصيل عين الذّهب
قَوَاطِناً مَكَّةَ مِنْ وُرْقِ الْحِمَى (العجّاج)	صفحة 26.	صفحة 58

[1] - فادي صقر أحمد عصيدة، جهود نحاة الأندلس في تيسير النّحو العربيّ، إشراف، وائل أبو صالح، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين (ماجستير)، 2006م، ص: 83.

[2] - شاعرٌ هذليٌّ من مخضرميّ الجاهليّة والإسلام.، والشّاهد في الكتاب، 36/1.

[3] - الشّنتمريّ، الأعلم، تحصيل عين الذّهب، ص: 71.

كَنَوَاحِ رِيشِ حَمَامَةٍ نَجْدِيَّـةٍ وَمَسَحْتِ بِـاللِّثَتَيْتَنِ عَصْفَ الْإِثْمِدِ	صفحة 27	صفحة 59
فَطِـرْتُ بِمُنْصُـلِي فِـي يَعْمَـلاتٍ دَوَامِـي الْأَيْـدِ يَخْـبِطْنَ السَّرِيحَا	صفحة 27	صفحة 60
فَلَسْتُ بِآتِيهِ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ وَلَاكِ اسْقِنِي إِنْ كَانَ مَاؤُكَ ذَا فَضْلِ	صفحة 27	صفحة 60
فَـإِنْ يَـكُ غَثّـا أَوْ سَـمِيناً فَـإِنَّنِي سَـأَجْعَلُ عَيْنَيْـهِ لِنَفْسِـهِ مَقْنَعَا	صفحة 28	صفحة 61
وَأَخُو الْغَوَانِ مَتَى يَشَـأْ يَصْـرِمْنَهُ وَيَعُدْنَ أَعْدَاءُ بُعَيْدَ وِدَادِ	صفحة 28	صفحة 62
تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيَ الدَّنَانِيرِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ	صفحة 28	صفحة 62
مَهْلاً أَعَاذِلُ قَدْ جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي أَنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَنِنُوا	صفحة 29	صفحة 63
ضَخْمٌ يُحِبُّ الْخُلُقَ الْأَضْخَمَّا	صفحة 29	صفحة 63
لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ جَادٍ إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرُ	صفحة 30	صفحة 64
وَأَيْقَنَ أَنَّ الْخَيْلَ إِنْ تَلْتَبِسْ بِهِ يَكُنْ لِفَسِيلِ النَّخْلِ بَعْدَهُ آبِرُ	صفحة 30	صفحة 65

3 – إيراد جميع الشّواهد الواردة في الباب وشروحها:

بمعنى أن شواهد الباب الواحد في كتاب سيبويه هي نفسها في تحصيل عين الذّهب. ومعنى ذلك أنّ الشّارح كان حريصاً على ذكر جميع الشّواهد التي ذكرها سيبويه في كتابه بنفس التّرتيب، فإذا كان الباب يشتمل على 5 أو 6 شواهد في كتاب سيبويه، فإنّ نفس الباب له نفس عدد الشّواهد في تحصيل عين الذّهب.

4 – إبراز موطن الشّاهد من البيت:

ومعنى ذلك أنّ الأعلم الشّنتمريّ كان يذكر المسألة النّحويّة التي من أجلها ذُكر الشّاهد، يقول مثلاً في الشّاهد رقم 30. (باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين): وأنشد في الباب:

كَأَنَّ سُلَافَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ[1]

الشّاهِدُ فِي نصب (المزاج) وهو معرفة، ورفع (العسل والماء) وهما نكرتان[2]

5 – نسبة الأبيات إلى أصحابها، وذكر مناسبة البيت، وموضعه في القصيدة. مثل قوله في الشّاهد رقم 34، وهو للأعشى:

وَتَشْرَقُ بِالْقَوْلِ الذي قَدْ أَذَعْتَهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

«يخاطب بالبيت يزيد بن مسهرٍ الشّيبانيّ، وكانت بينهما مباينةٌ ومهاجاةٌ ...»[3]

6 – إعراب بعض الكلمات من الشّاهد، أو كلّها:

مثل قوله في الشّاهد رقم 16، وهو للمرار الفقعسيّ[4]:

صَدَدْتِ فَأَطْوَلْتِ الصُّدُودَ وَقَلَّمَا وِصَالٌ عَلَى طُولِ الصُّدُودِ يَدُومُ

«وفيه تقديرٌ آخرُ؛ وهو أن يرتفع بفعل مضمرٍ، يدلّ عليه الظّاهر، فكأنّه قال: وقلّمَا يدوم وصالٌ يدوم، وهذا أسهل في الضّرورة، والأوّل أصحّ معنىً، وإن كان أبعد في اللّفظ ...»[5].

المبحث الثّالث: ابن مضاء، وثورته على النّحاة:

[1] - الشّاهد في الكتاب، 49/1، مع وجود كلمة (سبيئة) مكان (سلافة).
[2] - الشّنتمريّ، أبو الحجّاج يوسف، الأعلم، تحصيل عين الذّهب، ص: 78.
[3] - الشّنتمريّ، أبو الحجّاج يوسف، الأعلم، تحصيل عين الذّهب، ص: 80.
[4] - شاعرٌ إسلاميٌّ من شعراء الدّولة الأمويّة، وقد أدرك الدّولة العبّاسيّة (هامش ص: 67).
[5] - الشّنتمريّ، أبو الحجّاج يوسف، الأعلم، تحصيل عين الذّهب، ص: 67.

1 - ترجمته:

لا يمكن دراسة النّحو العربيّ في الأندلس، دون الحديث عن علمٍ من أعلامه، وهو "ابن مضاء القرطبيّ"، هذا الأخير الذي عُرف بمهاجمته للنّحاة السّابقين، من بصريّين وكوفيّين وغيرهم، ولم يكن هذا الهجوم إلاّ نتيجة حتميّة لاعتناقه المذهب الظّاهري، الذي كان الموحّدون من المدافعين عنه.

أما عن المترجم له فهو: «أبو العبّاس أحمد بن عبد الرّحمن بن مضاءٍ القرطبيّ، المتوفّي 592 ه، من أهل "قرطبة"، وإليها ينسب، كان منقطعاً إلى العلم والعلماء، أشدّ العناية بلقاء علماء عصره؛ ومن أجل ذلك تراه يترك "قرطبة" إلى "إشبيلية"؛ حيث يدرس كتاب سيبويه على "ابن الرّمّاك"، وكما هاجر إلى "إشبيلية" في طلب النّحو، هاجر إلى "سبتة"في طلب الحديث؛ حيث "القاضي عياض"، أكبر محدّثي المغرب وفقهائه في عصره، ومازال يعني بالحديث، حتّى صار عالماً بالرّواية، وكان مقرئاً مجدّداً، ومحدّثاً مكثر السّماع، عارفاً بالأصول، والكلام، والطّبّ والحساب، والهندسة»[1].

فابن مضاء – إذن – كان من المجدّين في طلب العلم، وذلك من خلال رحلتيه المذكورتين، الأولى إلى حاضرة إشبيلية، والثّانية إلى مدينة سبتة المغربيّة، غير أنّ ما يهمّنا هنا، هو ذلك التّوجّه الذي نلمسه في كتابه الذي سنعرض له، ونعني بذلك المنهج الظّاهريّ، الذي قام بتطبيقه على النّحو، وبه هاجم نحاة المشرق، وبالخصوص نحاة البصرة، وحاول الرّدّ على بعض مسائلهم وآرائهم، التي بدت له غير مجدية. لكن قبل ذلك، لابد من معرفة السّياق التّاريخيّ، الذي ساعد ابن مضاء في اتّباعه المنهج الظّاهريّ، ذلك أنّه عاش في القرن السّادس الهجريّ.

وبناءً على ذلك، يمكن القول، إنّ "ابن مضاء" قد عاش في كنف الموحّدين، وما يميّز هؤلاء عمّن سبقهم تلك الثّورة على أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة، المالكيّ، والحنفيّ، والشافعيّ، والحنبليّ، محاولة منهم العودة إلى القرآن الكريم والسّنّة، ولعلّ الفقيه ابن حزم الظّاهري من أبرز رواد هذا التّيّار في الأندلس، وقد كان ابن مضاء من المتعصّبين له، لكنّ

[1] - الحديثيّ، خديجة، المدارس النّحويّة، ص: 314.

ثورته – نعني بذلك ابن مضاء - لم تكن على أصحاب المذاهب الفقهيّة، بقدر ما كانت على المدارس النّحويّة المشرقيّة.

أمّا بالنّسبة للمذهب الظّاهريّ في الفقه، فهو ليس وليد البيئة الأندلسيّة، بل كان معروفاً قبل ذلك في المشرق، ولم ينتشر إلّا بعد قيام دولة الموحّدين بالمغرب والأندلس، «أمّا دعوة الموحّدين هذه التي كان ابن مضاء يميل إليها؛ فهي الدّعوة إلى الأخذ بمذهب "الظّاهر" في الفقه، وهو مذهبٌ كان أوّل من نادى به داود بن عليّ ابن خلف، البغداديّ مقامًا، الأصبهانيّ أصلاً، المولود سنة 200 ه، وقد تخرّج داود على تلاميذ الشّافعيّ، وكان معجباً به، وبمذهبه أشدّ الإعجاب، ثمّ لم يلبث أن خرج عنه، وقال إنّ المصادر الشّرعيّة هي النّصوص وحدها، ولا علم في الإسلام إلّا في النّصّ»[1]

وتذكر المصادر التي ترجمت لابن مضاء، أنّه تولّى وظيفة قاضي الجماعة، وقد تقلّد ذلك بكلّ من فاس وبجاية، «فألّف كتاب "الرّدّ على النّحاة"، يريد أن يردّ به نحو المشرق على المشرق؛ أو بعبارة أدقّ، يريد أن يردّ بعض أصول النّحو، وأن يخلّصه من كثرة الفروع فيه، وكثرة التّأويل، مستنًّا في ذلك بسنّة أميره يعقوب، إذ كان يعجَب مثله – على ما يظهر – بمذهب الظّاهريّة، فذهب يحاول تطبيقه على النّحو. وقد بدأ فرفض نظريّة العامل، التي جعلت النّحاة يكثرون من التّقدير، وهو تقدير يؤدّي إلى عدم التّمسّك بحرفيّة آي الذّكر الحكيم»[2].

«وقد كتب كتابه "الرّدّ على النّحاة"، يهدم فيه الأصول التي قام عليها النّحو العربيّ في المشرق، وليس عجيباً لدى المتتبّعين للفكر الإسلاميّ أن يتصدّى ابن مضاء لنقد النّحو العربيّ، فالحقّ أنّه لم يكن يقصد هدم النّحو لذاته، وإنّما كان يهدف إلى هدمه باعتباره وسيلةً لفهم الفقه المشرقيّ، الذي اشترك هو في الثّورة عليه»[3]

2 - كتاب الرّدّ على النّحاة:

تذكر مختلف المصادر، أنّ ابن مضاء قد خلّف ثلاثة كتب، تتعلّق بمذهبه الظّاهريّ في النّحو، وهي:

[1] - الحديثيّ، خديجة، المدارس النّحويّة، ص: 314 – 315.
[2] - مقدّمة شوقي ضيف لكتاب الرّدّ على النّحاة لابن مضاء، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط1، 1948، ص: 8 – 9.
[3] - عبده الرّاجحيّ، دروسٌ في كتب النّحو، ص: 171.

- الرّدّ على النّحاة (الرّدّ على النّحويّين)
- المَشرق في النّحو
- تنزيه القرآن عمّا لا يليق بالبيان

لكن الموجود منها هو الأوّل فقط، وقد قام بنشره وتحقيقه "شوقي ضيف"، ومن خلال العنوان، يمكن القول، إن صاحبه أراد به الرّدّ على من سبقه من النّحاة، خاصة البصريّين والكوفيّين، ومن حذا حذوهم في بعض المسائل، التي رأى أنها بدون طائل، فقام بتطبيق منهجه الظّاهريّ عليها، بمعنى أنّه أنكر على هؤلاء "النّحاة" كثرة الفروع، والتّأويلات، التي أخرجت النّحو عن أصوله المعروفة.

وبذلك يظهر لنا أنّ صاحب الكتاب قد حاول أن ينبّه إلى بعض الأمور، التي رأى أنّها غير ذات فائدة، بل على العكس، فقد أثقلت الدّرس النّحوي، وجعلته أقرب إلى التّعقيد، من هنا وجب الرّجوع به إلى أصوله الحرفيّة، بعيداً عن التّأويلات والتّفريعات، «وكانت غاية ابن مضاء أن يحذف من النّحو ما يستغني النّحويّ عنه، وأن ينبّه على ما اجتمعوا على الخطأ فيه. وتتحقّق هذه الغاية - في رأيه - بإلغاء نظريّة العامل، وإلغاء العِلل الثّوانيّ الثّوالث، وإبطال القياس، وترك المسائل النّظريّة، وإسقاط كلّ ما لا يفيد في النّطق»[1].

وتظهر منذ البداية ظاهريّة صاحب الكتاب، وتعصّبه؛ وذلك عندما استهلّه بالحديث عن واجب النّصيحة للمسلمين، وهو بذلك يطبّق على النّحو العربيّ ما طبّقه سابقوه على الفقه، وذلك بإلغاء كلّ ما من شأنه أن يُخرج النّصوص عن ظاهرها، نلمس ذلك في قوله:

«أَمَّا بَعْد، فَإِنَّهُ حَمَلَنِي عَلَى هَذَا الْمَكْتُوبِ قَوْلُ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : الدِّينُ النَّصِيحَةُ، وَقَوْلُهُ: مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللهِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ، وَقَوْلُهُ: «مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللهِ بِرَأْيِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، وَقَوْلُهُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ». وَعَلَى النَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ، إِنْ كَانَ مِمَّنْ يَحْتَاطُ لِدِينِهِ، وَيَجْعَلُ الْعِلْمَ مُزْلِفاً لَهُ مِنْ رَبِّهِ، أَنْ يَنْظُرَ، فَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ مَا نُبَيِّنُهُ رَجَعَ إِلَيْهِ،

[1] - أحمد مختار عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ص: 159.

وَشَكَرَ اللهَ عَلَيْهِ؛ وَإِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ؛ فَلْيَتَوَقَّفْ تَوَقُّفَ الْوَرِعِ عِنْدَ الْإِشْكَالِ؛ وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ خِلَافُهُ فَلْيُبَيِّنْ مَا ظَهَرَ لَهُ بِقَوْلٍ، أَوْ كِتَابَة»[1]

وهذه المقدّمة المتضمّنة للحديثين المذكورين، تظهر لنا المنهج الذي سيسير عليه الكاتب، وذلك عبر حديثه عن "الرّأي"، وواجب التّحرّز منه أثناء الكلام عن آيات القرآن الكريم؛ هذا الأخير الذي على المسلم أن لا يفسّره برأيه مهما ظهر له أنّه صواب، لأنّ الرّأي مخالف للعلم الشّرعيّ، لدرجة أنّه يذكر أنّه بصدد تغيير منكر، وهو يقصد بذلك ما تعلّق بالنّحو العربيّ، وما شابه من التّعقيدات المختلفة، التي أبعدته عن ظواهر النّصوص، وهو بذلك ينكر على المقلّدين، الذين لا يحاولون الثّورة على المفاهيم الخاطئة، ومن الأبيات التي ذكرها بيت جرير:

خَلِّ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ وَابْرُزْ بِبَرْزَةَ حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدَرُ[2]

«استشهد ابن مضاء ببيت "جريرٍ" هذا في تقديمه لحديث (الرّدّ على النّحاة)، إنّه يضع منذ البداية قضيّة روّاد البحث المجتهدين، مع بقيّة الأتباع والمقلّدين، أولئك يسلكون الطّرق الوعرة المجهولة، ليفرشوها بالضّوء، ويبتّوا بها منار الهداية للسّالكين، وهؤلاء يقفون حيث وجدوا أنفسهم، في المكان الذي وقف فيه من قبلهم»[3].

وقبل ذلك نجده يتحدّث عمّا وضع أهل النّحو السّابقين (ويقصد بهم أصحاب المدرسة البصريّة)، من تفريعات أخرجت النّحو عمّا كان يجب أن يقف عنده، ولا يتجاوزه، وذلك في قوله: «وَإِنِّي رَأَيْتُ النَّحْوِيِّينَ – رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ – قَدْ وَضَعُوا صِنَاعَةَ النَّحْوِ لِحِفْظِ كَلَامِ الْعَرَبِ مِنَ اللَّحْنِ، وَصِيَانَتِهِ عَنِ التَّغْيِيرِ، فَبَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ التِي أَمُّوا، وَانْتَهَوْا إِلَى الْمَطْلُوبِ الذِي ابْتَغَوْا؛ إِلَّا أَنَّهُمْ الْتَزَمُوا مَا لَا يَلْزَمُهُمْ، وَتَجَاوَزُوا فِيهَا الْقَدْرَ الْكَافِي فِيمَا أَوْرَدُوا مِنْهَا، فَتَوَعَّرَتْ مَسَالِكُهَا، وَوَهَنَتْ مَبَانِيهَا، وَانْحَطَّتْ عَنْ رُتْبَةِ الْإِقْنَاعِ حُجَجُهَا»[4]

3 ـ دعوته إلى إلغاء نظريّة العامل:

[1] ـ ابن مضاء القرطبيّ، الرّدّ على النّحاة، ص: 80.
[2] ـ ابن مضاء، المصدر السّابق، ص: 84.
[3] ـ محمّد عيد، أصول النّحو العربيّ، في نظر النّحاة، ورأي ابن مضاء، وضوء علم اللّغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1989. ص: 46.
[4] ـ ابن مضاء القرطبيّ، المصدر السّابق، ص: 80.

ومن المواضيع الهامّة، التي شغلت بال "ابن مضاء"، ما يسمى بنظريّة العامل، التي رأى أنّها يجب أن تهدم، ولا يعتدّ بها، فقام بالدّعوة إلى إلغائها من الدّرس النّحويّ، والرّجوع به إلى الأصل، وذَكَرَ أنّ هذه النّظريّة ما هي إلّا شيء زائد، لدرجة أنّه وصفه بالخطأ الذي يجب الرّجوع عنه، وهذا ما نلمسه من خلال قوله، في مستهلّ كتابه: «قَصْدِي فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ أَحْذِفَ مِنَ النَّحْوِ مَا يَسْتَغْنِي النَّحْوِيُّ عَنْهُ، وَأُنَبِّهَ عَلَى مَا أَجْمَعُوا عَلَى الْخَطَأِ فِيهِ. فَمِنْ ذَلِكَ ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ النَّصْبَ وَالْخَفْضَ وَالْجَزْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَامِلٍ لَفْظِيٍّ، وَأَنَّ الرَّفْعَ مِنْهَا يَكُونُ بِعَامِلٍ لَفْظِيٍّ، وَبِعَامِلٍ مَعْنَوِيٍّ، وَعَبَّرُوا عَنْ ذَلِكَ بِعِبَارَاتٍ تَوُهِمُ فِي قَوْلِنَا (ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً) أَنَّ الرَّفْعَ الذِي فِي زَيْدٍ، وَالنَّصْبَ الذِي فِي عَمْرٍو، إِنَّمَا أَحْدَثَهُ "ضَرَبَ»[1].

أمّا فيما يخصّ الكلام عن "العامل"، وما قد يتبادر إلى الذّهن من أنّه قد دُرس من قِبَلِ أغلب أهل النّحو المتقدّمين، وأنّه لا سبيل إلى إلغائه، ما دام أصلًا من أصول الدّرس النّحويّة، التي ذكرها سيبويه، ومن تبعه من البصريّين والكوفيّين، فإنّ "ابن مضاء" يردّ على ذلك، مستندًا إلى خلفيته الظّاهريّة فـــ «هنا أيضاً تستحضر صورة "ابن مضاء" الفقيه الظّاهريّ المذهب، إذ تقدّم أنّ الظّاهريّة لا يكادون يعترفون بالإجماع في الفقه، و"ابن مضاء" لا يعترف بإجماع النّحو، ومنشأ هذا الموقف في كلا المظهرين – الفقه والنّحو – هو التزام النّصّ، واحترام النّطق، وبتصوّر ذلك؛ فإنّ رأي "ابن مضاء" في الإجماع على العامل يتّفق تماماً مع تلك الصّورة العامّة، فلا حاجة للإجماع إذا خالف النّصّ»[2]

ولتعزيز موقفه نجده يستشهد – في ذلك - بنصٍّ لابن جنّي، ذكره في "باب القول على إجماع أهل العربيّة متى يكون حجّةً"، يقول فيه: «اعْلَمْ أَنَّ إِجْمَاعَ أَهْلِ الْبَلَدَيْنِ؛ إِنَّمَا يَكُونُ حُجَّةً، إِذَا أَعْطَاكَ خَصْمُكَ يَدَهُ أَلَّا يُخَالِفَ الْمَنْصُوصَ. وَالْمَقِيسَ عَلَى الْمَنْصُوصِ، فَأَمَّا إِنْ لَمْ يُعْطِ يَدَهُ، فَلَا يَكُونُ إِجْمَاعُهُمْ حُجَّةً عَلَيْهِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ مِمَّنْ يُطَاعُ أَمْرُهُ فِي قُرْآنٍ وَلَا سُنَّةٍ أَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى الْخَطَأِ؛ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ

[1] - ابن مضاء القرطبيّ، المصدر السّابق، ص: 85.
[2] - محمّد عيد، أصول النّحو العربيّ، في نظر النّحاة، ورأي ابن مضاء، وضوء علم اللّغة الحديث، ص: 215.

قَوْلِهِ: "أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَة"، وَإِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ مُنْتَزَعٌ مِن اسْتِقْرَاءِ هَذِهِ اللُّغَةِ. فَكُلُّ مَنْ فُرِقَ لَهُ عَنْ عِلَّةٍ صَحِيحَةٍ، وَطَرِيقٍ نَهجَةٍ[1]، كَانَ خَلِيلَ نَفْسِهِ، وَأَبَا عَمْرٍو فِكرِه»[2].

باب التّنازع

ولكي يثبت صحّة رأيه الدّاعي إلى إلغاء نظريّة العامل، وكلّ ما من شأنه تعقيد الدّرس النّجويّ العربي، قام "ابن مضاء" بدراسة "بابي التّنازع والاشتغال"، وفصّل فيهما القول، تفصيلاً يشمل بعض الآراء القائلة بالإعمال، يقول في باب التّنازع: «فَمِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ: بَابُ الْفَاعِلِينَ وَالْمَفْعُولِينَ، اللَّذَيْنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ بِفَاعِلِهِ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ بِهِ الْآخَرُ، وَمَا كَانَ نَحْوَ ذَلِكَ. هَذِهِ تَرْجَمَةُ سِيبَوَيْه – رَحِمَهُ اللهُ -، وَأَنَا فِي هَذَا الْبَابِ لَا أُخَالِفُ النَّحْوِيِّينَ إِلَّا فِي أَنْ أَقُولَ: عَلَّقْتُ، وَلَا أَقُولُ: أَعْمَلْتُ، وَالتَّعْلِيقُ يَسْتَعْمِلُهُ النَّحْوِيُّونَ فِي الْمَجْرُورَاتِ، وَأَنَا أَسْتَعْمِلُهُ فِي الْمَجْرُورَاتِ وَالْفَاعِلِينَ وَالْمَفْعُولِينَ ...»[3].

وخلاصة رأي "ابن مضاء" حول مسألة العامل، هو أن العامل - في كلّ ذلك - لا يعدو أن يكون هو المتكلّم، وهو رأيٌ ذكره "ابن جنّي" قبله، واستشهد هو به، ولا يمكن للألفاظ أن يحدث بعضها بعضًا، بمعنى أنّ الألفاظ غير قادرة على العمل في غيرها، يقول في ذلك: «وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ الْأَلْفَاظَ يُحْدِثُ بَعْضُهَا بَعْضاً فَبَاطِلٌ عَقْلاً وَشَرْعاً، لَا يَقُولُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ، لِمَعَانٍ يَطُولُ ذِكْرُهَا – فِيمَا الْمَقْصَدُ إِيجَازُهُ - : مِنْهَا أَنَّ شَرْطَ الْفَاعِلِ أَنْ يَكُونَ مَوْجُوداً حِينَمَا يَفْعَلُ فِعْلَهُ، وَلَا يَحْدُثُ الْإِعْرَابُ - فِيمَا يَحْدُثُ فِيهِ - إِلَّا بَعْدَ عَدمِ الْعَامِلِ، فَلَا يُنْصَبُ زَيْدٌ بَعْدَ "إِنَّ" فِي قَوْلِنَا (إِنَّ زَيْدًا) إِلَّا بَعْدَ عَدمِ إِنَّ»[4].

باب الاشتغال:

[1] - الطّريق النّهج أو النّهجة، هي الطّريق البيّنة الواضحة، ويقصد بالخليل الفراهيدي، وبأبي عمرو، أبا عمرو بن العلاء.
[2] - ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج1، ص: 189 – 190.
[3] - ابن مضاء القرطبيّ، الرّدّ على النّحاة، ص: 107.
[4] - المصدر نفسه، ص: 87.

وبنفس المنهج الذي اتّبعه صاحب "الرّدّ على النّحاة" في "باب التّنازع"؛ لإثبات نظريّته القائلة بإلغاء العامل، وبطلان العمل به، سار في بابٍ آخر، لا يقلّ أهمّية عن سابقه في ذلك، ونقصد به "باب الاشتغال"، وقد حاول فيه ردّ الحُجج القائلة بالحاجة إلى العوامل، وكذا عمل بعض الألفاظ في بعض، وذلك بذكر الأدلّة التي تؤيّد رأيه، معزّزاً ذلك بذكر الآراء السّابقة، مع الأمثلة ومناقشتها مناقشة علميّة، وذلك قصد رفع اللّبس على القارئ، وإثباتاً لوجهة نظره الخاصّة، من ذلك قوله:

«وَإِنْ كَانَ الْعَائِدُ عَلَى الْإِسْمِ الْمُقَدَّمِ قَبْلَ الْفِعْلِ ضَمِيرَ رَفْعٍ، فَإِنَّ الْإِسْمَ يَرْتَفِعَ، كَمَا أَنَّ ضَمِيرَهُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ. وَلَا يُضْمَرُ رَافِعٌ، كَمَا لَا يُضْمَرُ نَاصِبٌ، إِنَّمَا يَرْفَعُهُ الْمُتَكَلِّمُ، وَيَنْصِبُهُ اتِّبَاعاً لِكَلَامِ الْعَرَبِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِكَ: (أَزَيْدٌ قَائِمٌ)، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[1]، وَقَوْلُنَا: إِنَّهُ تَارَةً مَنْصُوبٌ، عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُبْتَدَإٍ، وَتَارَةً مَرْفُوعٌ، عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ، فَلَا مَنْفَعَةَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ**﴾[2] ، فـــ"أَنْتُمْ" فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ ...»[3].

فابن مضاء - هنا - يورد مختلف الأمثلة، التي استشهد بها من سبقة من نحاة البصرة والكوفة، وبيان محلّ الاشتغال فيها، حسب قولهم، قبل أن يسوق رأيه في ذلك، بغية الوصول إلى إبطال الاشتغال في النّحو، وما يترتّب عليه من أمورٍ لا تفيد النّحويّ في شيءٍ، لأنّها بعيدةٌ كلّ البعد عن الظّاهر، وبالتّالي، فإنّ العوامل هنا لا أثر لها، شأنها شأن مثيلاتها في الباب السّابق، وهو "باب" التّنازع. ومن الأمثلة المذكورة أيضاً:

(أَزَيْدٌ ضَرَبَ أَبُوهُ عَمْرًا) – (أَزَيْدٌ ضُرِبَ) – (أَزَيْدٌ ذُهِبَ بِهِ) – (أَزَيْدٌ مُرَّ بِغُلَامِه)[4]

4 - إلغاء العلل الثّوانيّ والثّوالث

وقد هاجم "ابن مضاء" النّحاة السّابقين في مسائل أخرى، كالدّعوة إلى إلغاء القياس، وقد ذكر أمثلةً للعلل الفاسدة، إضافةً إلى إلغاء التّمارين غير العمليّة، فضلاً غن إلغاء كلّ ما لا

[1] - سورة يونس: 59.
[2] - سورة الواقعة: 58 - 59.
[3] - ابن مضاء القرطبيّ، الرّدّ على النّحاة، ص: 121 - 122.
[4] - المصدر نفسه، ص: 122.

يفيد نطقاً، وقد جاء بالأمثلة التي يرى أنّها تؤيّد رأيه في كلّ مسألة من المسائل المذكورة، مستضيئاً بآراء السّابقين، ممّن رأى أنّهم على صوابٍ في ذلك، وهو يورد الآراء التي يريد لفت النّظر إلى موضع الخطأ فيها؛ قصد هدمها، وإعادة صياغتها في ضوء مذهبه الظّاهريّ، وسنكتفي نحن بذكر رأيه في العلل الثّوانيّ والثّوالث.

وقد تحدّث الزّجّاج في علل النّحو، وقسّمها إلى ثلاثة أنواع:[1]

أ – **العلّة التّعليميّة:** وهي التي يتوصّل بها إلى تعلّم كلام العرب، مثل قولنا: "إنَّ زَيدًا قائمٌ"، فإن سُئلنا: بم نصبتم "زيدًا"، قلنا بـــ "إنّ"؛ لأنّها تنصب الاسم، وترفع الخبر ...

ب – العلّة القياسيّة: وهي التي يستفهم عنها بعد معرفة الأولى؛ بأن يسأل بعد ذلك: ولِمَ وجب أن تنصب "إنّ" الاسم؟ فالجواب في ذلك أن يقال: لأنّها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدّي إلى مفعول؛ فحملت عليه، فأعملت أعماله ...

ج – العلّة الجدليّة النّظريّة: وهي كلّ ما قيل بعد ذلك في باب "إنّ" مثال: فمن أيّ جهة شابهت هذه الحروف الأفعال ؟ وبأيّ الأفعال شبّهتموها ...؟

من هنا، يظهر لنا أنّ "ابن مضاء - في كتابه المذكور - حاول إلغاء كلّ من العلّة القياسيّة، والعلّة الجدليّة النّظرية، والاكتفاء بالعلّة التّعليميّة، لأنها أقرب إلى ظواهر النّصوص، ولا حاجة بنا إلى الاستفهامات التي قد تخرجنا عن ذلك.

وقد ذكر "ابن مضاء" العلل السّابقة، وأبدى رأيه حولها، حيث نادى بضرورة إسقاط كلٍّ من العلل الثّواني، والثُوالث، والإبقاء فقط على العلل الأُول، وذلك، لأنّه ذكر أنّ تلك العلل لا تفيد السّائل، سواء علمها أو جهلها، فما يهمّه هو الوجه الأوّل من العلل، المسمّى بالعلل التّعليميّة، يقول: «وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يَسْقُطَ مِنَ النَّحْوِ الْعِلَلُ الثَّوَانِيُّ وَالثَّوَالِثُ، وَذَلِكَ مِثْلَ سُؤَالِ السَّائِلِ عَنْ (زَيْدٍ) مِنْ قَوْلِنَا: (قَامَ زَيْدٌ)، لِمَ رُفِعَ؟ فَيُقَالُ: لِأَنَّهُ فَاعِلٌ، وَكُلُّ فَاعِلٍ مَرْفُوعٌ، فَيَقُولُ: وَلِمَ رُفِعَ الْفَاعِلُ ؟ فَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: كَذَا نَطَقَتْ بِهِ الْعَرَبُ. ثَبُتَ ذَلِكَ بِالِاسْتِقْرَاءِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُتَوَاتِرِ. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ مَنْ عَرَفَ أَنَّ شَيْئًا مَا حَرَامٌ بِالنَّصِّ، وَلَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى

[1] - الحديثي، خديجة، المدارس النّحويّة، ص: 320.

اسْتِنْبَاطِ عِلَّةٍ، لِيُنْقَلَ حُكْمُهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَسَأَلَ:لِمَ حُرِّمَ ؟ فَإِنَّ الْجَوَابَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَى الْفَقِيهِ »[1].

فابن مضاء - في هذا التّقديم – لمسألة العلل الثّواني والثّوالث، يحاول توضيح المسألة، التي تمثّل الأخذ بعلّةٍ واحدةٍ فقط، والاستغناء عمّا سواها، لأنّ ذلك من الأمور الزّائدة، وهو يربط ذلك ببعض الأمثلة الفقهية، ممّا يشير إلى تأثّره بالمذهب الظّاهري في الفقه، يقول مثلاً:

«وَهَذِهِ الْعِلَلُ الثَّوَانِيّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ مَقْطُوعٌ بِهِ، وَقِسْمٌ فِيهِ إِقْنَاعٌ، وَقِسْمٌ مَقْطُوعٌ بِفَسَادِهِ. وَهَذِهِ الْأَقْسَامُ مَوْجُودَةٌ فِي كُتُبِ النَّحْوِيِّينَ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلَلِ الْأُوَلِ، وَالْعِلَلِ الثَّوَانِيّ، أَنَّ الْعِلَلَ الْأُوَلَ بِمَعْرِفَتِهَا تَحْصُلُ لَنَا الْمَعْرِفَةُ بِالنُّطْقِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ الْمُدْرَكِ مِنَّا بِالنَّظَرِ، وَالْعِلَلُ الثَّوَانِيُّ هِيَ الْمُسْتَغْنَى عَنْهَا فِي ذَلِكَ، وَلَا تُفِيدُنَا، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أُمَّةٌ حَكِيمَةٌ ! وَذَلِكَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ. فَمِثَالُ الْمَقْطُوعِ بِهِ قَوْلُ الْقَائِلِ: كُلُّ سَاكِنَيْنِ الْتَقَيَا فِي الْوَصْلِ، وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا حَرْفَ لِينٍ يُحَرَّك ...»[2]

المبحث الرّابع: ابن عصفور الإشبيليّ

1 - ترجمته:

[1] - ابن مضاء القرطبيّ، الرّدّ على النّحاة، ص: 151.
[2] - المصدر نفسه، ص: 152.

إذا كان ابن مضاء من أشهر علماء النّحو في الأندلس، خلال القرن السّادس الهجري؛ فإنّ "ابن عصفور" من أشهر هؤلاء، خلال القرن السّابع، وقد ترجم له غير واحد من أصحاب التّراجم، وذكروا أنّه عليّ بن أبي الحسن بن مؤمن بن محمّدٍ بن عليٍّ بن عصفورٍ الحضرميّ الإشبيليّ، وكنيته: "أبو الحسن"، أمّا لقبه فهو "ابن عصفورٍ". ولد عام سبعة وتسعين وخمسمائةٍ، بإشبيلية، «وقد ذكر من ترجم له أنّه كان صابراً على البحث ومدارسته، لا يملّ من ذلك، وقد تصدّر للإقراء والتّعليم، فأقبل عليه الطّلبة، وأخذوا عنه علم العربيّة، والمتتبّع لمؤلّفاته يجد أنّه لم يكن له باع، إلّا فيما يتعلّق بعلوم العربيّة وآدابها»[1].

فابن عصفورٍ – إذن – قد تبوّء مكانةً عظيمةً، ما دام أنّه قد تصدّر للإقراء والتّدريس، في حاضرة من أكبر حواضر الأندلس، على الرّغم من الأوضاع التي مرّت بالمسلمين في تلك الفترة، ولعلّ الصّبر على البحث في مؤلّفات النّحاة السّابقين، من بصريّين وكوفيّين وبغداديّين، إضافة إلى آراء من سبقه من نحاة الأندلس، هو ما جعله يحتلّ تلك المكانة، كما تذكر المصادر أنّه من تلاميذ الشّلوبين، يقول الدكتور "شوقي ضيف":

«حامل لواء العربيّة في زمانه بالأندلس، وهو تلميذ الشّلوبين، تصدّر لإقراء النّحو بعدّة بلادٍ في موطنه. وله في النّحو والتّصريف مصنّفاتٌ مختلفةٌ، منها "المقرّب"، و"الممتع في التّصريف"، و"مختصر المحتسب" لابن جنّي، وكانت له ثلاثة شروح على "الجمل" للزّجّاجيّ. وله آراءٌ كثيرةٌ تدور في كتب النّحاة، منها ما يقف فيه مع سيبويه والبصريّين، ومنها ما يقف فيه مع الكوفيّين أو البغداديّين، ومنها ما استقلّ به»[2]

وتذكر المصادر أنّ ابن عصفور تفوّق على أستاذه أبي عليّ الشّلوبين، وأصبح منافساً له في حلقات العلم والدّرس، ممّا جعل هذا الأخير ينقم عليه، ويحاول الغضّ من قدره، لدرجة أنّه كان يصفه بالجاهل، يقول السّيوطيّ:

[1] - مقدّمة المحقّقَين:عادل أحمد عبد الموجود، وعليّ محمّد معوّض ، لكتاب ابن عصفور الإشبيليّ، المقرّب ومعه مُثُلُ المقرّب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص: 29.

[2] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص:

«قال ابن الزّبير: أخذ عن الدبّاج والشّلوبين، ولازمه مدّة، ثمّ كانت بينهما منافرة ومقاطعة، وتصدّر للاشتغال مدّة بعدّة بلاد، وجال بالأندلس، وأقبل عليه الطّلبة، وكان أصبر النّاس على المطالعة؛ لا يملّ من ذلك؛ ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النّحو؛ ولا تأهّل لغير ذلك»[1]

ومن أمثلة ذلك ما ذكرة المقّري؛ في ترجمة الفقيه، أبي جعفرٍ أحمد بن يوسف الفهريّ اللّبلي[2]، حيث قال إنّ هذا الأخير قُرئَ عليه يوماً قول امرئ القيس:

حَيِّ الحُمُولَ بِجَانِبِ الْعَزْلِ إِذْ لاَ يُلاَئِمُ شَكْلُهَا شَكْلِي

«فقال لطلبته: ما العامل في هذا الظّرف؛ يعني "إذ" ؟ فتنازعوا القول، فقال: حسبكم، قُرئ هذا البيت على أستاذنا أبي عليٍّ الشّلوبين، فَسَأَكَنَا هذا السّؤال، وكان أبو الحسن ابن عصفور قد برع، واستقلّ، وجلس للتّدريس، وكان الشّلوبين يغضّ منه، فقال لنا: إذا خرجتم، فاسألوا ذلك الجاهل، يعني ابن عصفور»[3].

أمّا عن سبب وفاته، وتاريخ ذلك فقد وقع في بعض الاختلاف، وسنكتفي هنا بذكر ما أورده السّيوطيّ – نقلاً عن الصّفدي، حيث يذكر ما يلي:

«ولم يكن عنده ورعٌ، وجلس في مجلس شرابٍ، فلم يزل يُرجم بالنّارَنْج[4]، إلى أن مات في رابع عشر ذي القعدة، سنة ثلاث – وقيل تسع – وستّين وستّمائة. ومولده سنة سبع وتسعين وخمسمائة»[5]

2 - ابن عصفور والمذهب البصريّ

عاش ابن عصفور في القرن السّابع الهجري، وقد عرفت هذه الفترة رسوخ المذاهب النّحويّة في المشرق، كما عرف اكتمال أسس المدرسة النّحويّة في الأندلس، تلك المدرسة التي

[1] - السّيوطيّ، بغية الوعاة في تراجم اللّغويّين والنّحاة، ج2، ص: 210.
[2] - ترجمته في نفح الطّيب، ج2، ص: 209، ولبلة من قرى الأندلس.
[3] - المقّري، نفح الطّيب، ج2، ص: 209.
[4] - النّارنج يشبه البرتقال، لذا يطلق عليه البرتقال المرّ.
[5] - السّيوطيّ، المصدر السّابق، ج2، ص: 210.

انتعشت بفضل أعلامها السّابقين، والذين تبنّوا آراءً تتوافق مع آراء البصريّين تارة، ومع آراء الكوفيّين أو البغداديّين تارة أخرى، بل لقد عرفت ثورة ابن مضاء على النّحاة السّابقين، «والذي حدث أنّ ابن عصفور، ومعه علماء الأندلس، اتّخذوا مذهباً يحمل اسمهم، هو المذهب الأندلسيّ، له قواعده وأصوله، لكنّها في غالبها أصول المذهب البصريّ وقواعده. وقد اختار ابن عصفور المذهب البصريّ في أكثر آرائه – إن لم تكن كلّها- لصحّته، وشهرته، وتفوّقه»[1]

وقد كان لشهرة كتاب سيبويه، وانتشاره بينهم الفضل الكبير في العناية به، والأخذ بآرائه، خصوصاً بعدما ظهرت عدّة شروح له، وهي المذكورة في بداية هذا الفصل، كلّ ذلك كان مدعاة للإعجاب به من قبل النّحاة، ولعلّ ذلك ما دفع ابن عصفور إلى تبنّي آراء المدرسة البصريّة، وجعلها مرجعاً له في معظم المسائل التي ناقشها في كتبه، مثل كتاب المقرّب. لكنّ ذلك لا يعني أنّه كان متعصّباً لهذه المدرسة، بل كان يأخذ بآراء الكوفيّين والغداديّين، وربّما استقلّ برأيه.

ومن الآراء التي يقف فيه موقف البصريّين: «أنّه كان يرى رأي سيبويه في أنّ لام المستغاث في مثل "يا لزيدٍ" متعلّقةٌ بفعل النّداء المحذوف، لا ب"يا" كما ذهب إلى ذلك ابن جنّي، ولا زائدة، كما ذهب إلى ذلك المبرّد. وكذلك كان يختار رأيه في أنّ ما بعد لولا مبتدأٌ لا فاعلٌ بإضمار فعل، كما ذهب الكسائيّ. وكان يذهب مذهب الأخفش في أنّ "إن" يجوز فيها الكسر والفتح، إذا تلت مذ ومنذ ... وكان يرى رأي الزّجّاج في أنّ إذا الفجائية ظرف زمان»[2]

3 - كتاب المقرّب

ألّف ابن عصفور عدّة كتب تدور كلّها حول اللّغة العربيّة، ونحوها وصرفها، ولم يكن له باعٌ في غير ذلك، ومن مؤلّفاته نذكر[3]:

1 – البديع: وهو شرح للمقدّمة الجزوليّة في النّحو.

2 – شرح الإيضاح في النّحو لأبي عليّ الفارسيّ.

[1] - مقدّمة كتاب المقرّب، ص: 50.
[2] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 307.
[3] - ينظر، مقدّمة كتاب المقرّب، ص: 36 – 37.

3 – شرح كتاب سيبويه.

4 – شروح الجُمَل: والجُمل كتاب للزّجّاجيّ، شرحه ابن عصفور ثلاثة شروح، الأكبر، الأوسط، والأصغر.

5 – المقرّب، ومُثُل المقرّب.

6 – الممتع في التّصريف.

7 – ضرائر الشّعر.

وغير ذلك من المؤلّفات، التي تدور كلّها حول النّحو والصّرف، إضافة إلى الشّروح النّحويّة والشّعريّة، لكنّ ما يهمّنا هنا هو المؤلّفات من 4 إلى 7. ذلك أنّها مطبوعة ومتداولة، كما أنّها تعبّر عن منهج صاحبها، وسنقوم بدراسة كلّ من كتاب المقرّب، والممتع في التّصريف، الأوّل لأنّه يشتمل على مسائل نحويّة، والثّاني لأنّه يشتمل على مسائل صرفيّة، وممّا يلاحظ على كتاب المقرّب، أنّه تعرّض للنّقد من قبل عدد غير قليل من الّنحاة البارزين سواءُ في الأندلس أو في غيرها، كما تعرّض صاحبه للنّقد ذاته، وقد أورد المقّري بعض هؤلاء، وعناوين مؤلّفاتهم، التي ردّوا بها على المقرّب، يقول:

«ولمّا ألّف ابن عصفورٍ كتابه "المقرّب" في النّحو، انتقده جماعة من أهل قطره الأندلسيّ، وغيرهم، منهم ابن الصّائغ، وابن هشام، والجزيريّ، وله عليه: "المنهج المعرّب في الرّدّ على المقرّب"، وفيه تخليطٌ كثيرٌ وتعسّف:

وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ نَورَهَا وَيَأْمُلُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرِيبٍ

ومهم ابن الحاج، وأبو الحسن حازم القرطاجَنّيّ الخزرجيّ، وسمّاه "شدّ الزّيار على جحفلة الحمار"، وابن مؤمن القابسيّ، وبهاء الدّين ابن النّحّاس»[1].

من أبواب الكتاب

الباب الأوّل: ذكر حقيقة النّحو

[1] - المقّريّ، نفح الطّيب، ج4، ص: 148.

يقول "ابن عصفورٍ" في أوّل باب من أبواب كتابه "المقرّب":

«النَّحْوُ عِلْمٌ مُسْتَخْرَجٌ بِالْمَقَايِيسِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنِ اسْتِقْرَاءِ كَلَامِ الْعَرَبِ، الْمُوصِلَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ أَجْزَائِهِ، التِي تَأْتَلِفُ مِنْهَا، وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ لَيْسَتْ وَزْنِيَّةً؛ فَيُحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، إِلَى تَبْيِينِ حَقِيقَةِ الْكَلَامِ، وَتَبْيِينِ أَجْزَائِهِ التِي يَأْتَلِفُ مِنْهَا، وَتَبْيِينِ أَحْكَامِهَا. **باب تبيين الكلام وأجزائه**

الْكَلَامُ – اصْطِلَاحاً -: هُوَ اللَّفْظُ الْمُرَكَّبُ وُجُوداً، أَو تقديراً، المفيد بالوضع، وأجزاؤه ثلاثة: اسمٌ، وفعلٌ، وحرف.»[1]

ثم يورد ابن عصفور – بعد ذلك – تعريفات للأجزاء الثّلاثة المذكورة، وهو في ذلك لا يأتي بشيئ جديد، ذلك أنّ هذا الباب هو أوّل ما يذكر في كتب النّحو.

4 - عنايته بالتَصريف

ممّا يميّز ابن عصفور عن سابقيه، أنّه خصّ فنّ التّصريف بتأليف، وهو بذلك يحاول سدّ الفراغ الموجود، بعدما رأى أنّ معظم من سبقه قد صبّوا عنايتهم على النّحو، وأهملوا الصّرف، والكتاب في جزءين من تحقيق الدّكتور فخر الدّين قباوة، هذا الأخير الذي خصّ حياة ابن عصفور بكتاب مستقلّ سمّاة "ابن عصفور والتّصريف"، ذكره في مقدّمته لكتاب الممتع.

«وقد بسط ابن عصفورٍ مسائل التّصريف، في هذا الكتاب، بسطاً مسهباً، مدعوماً بالتّعليل، والتّفسير، والحجاج، والأدلّة، والشّواهد، فكان من أشهر كتبه، ومن أمثَل كتب الصّرف المطوّلة، حتّى قَلّ أن يخلو من مسائله كتابٌ، من كتب المتأخّرين. وكان أبو حيّان النّحويّ شديد الإعجاب به، يقدّمه على ما سواه، ولا يفارقه في الحلّ والتّرحال، لأنّه كما يقول: "أحسن ما وضع في هذا الفنّ ترتيباً، وألخصه تهذيباً، وأجمعه بتقسيماً، وأقربه تفهيماً»[2]

[1] - ابن عصفور، المقرّب ومعه مُثُل المقرّب، ص: 67.
[2] - ابن عصفور، الممتع في التّصريف، تح: فخر الّين قباوة، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1987،ج1، ص: 7 -8. (مقدّمة المحقّق).

وقد استهلّ ابن عصفور كتابه بخطبة تنمّ عن الدّافع وراء تأليفه، الذي ذكر أنّه جاء لسدّ النّقص الذي ذكرناه سابقاً، وتلبية لطلب الأمير الشّاعر "أبي الإصبغ بن صاحب الرّدّ"، يقول:

«فَإِنِّي لمّا رَأَيْتُ النَّحوِيّينَ قَدْ هَابُوا – لِغُمُوضِهِ – عِلْمَ التَّصْرِيفِ. فَتَرَكُوا التَّأْلِيفَ فِيهِ، وَالتَّصْنِيفَ، إلاَّ الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ وَضَعُوا فِيهِ مَا لَا يُبْرِدُ غَلِيلاً، وَلَا يُحَصِّلُ لِطَالِبِهِ مَأْمُولاً، لِاخْتِلَالِ تَرْتِيبِهِ، وَتَدَاخُلِ تَبْوِيبِهِ، وَضَعْتُ فِي ذَلِكَ كِتَاباً رَفَعْتُ فِيهِ مِنْ عِلْمِ التَّصْرِيفِ شَرَائِعَهُ، وَمَلَّكْتُهُ عَاصِيَهُ وَطَائِعَهُ، وَذَلَّلْتُهُ لِلْفَهْمِ بِحُسْنِ التَّرْتِيبِ، وَكَثْرَةِ التَّهْذِيبِ لِأَلْفَاظِهِ وَالتَّقْرِيبِ، حَتَّى صَارَ مَعْنَاهُ إِلَى الْقَلْبِ أَسْرَعَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى السَّمْعِ. فَلَمَّا أَتَيْتُ بِهِ عَلِيَّ الْقَدْحِ، مُمْتَنِعاً عَنِ الْقَدْحِ، مُشْبِهاً لِلرَّوْضِ فِي وَشْيِ أَلْوَانِهِ، وَتَعَمُّمِ أَفْنَانِهِ، وَإِشْرَاقِ أَنْوَارِهِ، وَابْتِهَاجِ أَنْجَادِهِ وَأَغْوَارِهِ، وَالْعِقْدِ فِي الْتِئَامِ وُصُولِهِ، وَانْتِظَامِ فُصُولِهِ، سَمَّيْتُهُ بِـــ "الْمُمْتِعِ"، لِيَكُونَ اسْمُهُ وِفْقَ مَعْنَاهُ، وَمُتَرْجِماً عَنْ فَحْوَاه»[1]

5 ـ مقدّمة كتاب الممتع

لقد قدّم ابن عصفور لكتابه، ذاكراً أهمّية علم التّصريف للمشتغلين بالعربيّة، من أهل النّحو واللّغة، لأنّ ذلك يساعدهم على فهم الأوزان، ومعانيها، ويجنّبهم الوقوع في الزّلل، وربّما أخطأ أحدهم في معنى لفظة من الألفاظ لأنّه لا يعلم ميزانها الصّرفي، يقول في "ذكر شرف علم التّصريف":

«التَّصْرِيفُ أَشْرَفُ شَطْرَيِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَغْمَضُهُمَا:

فَالذِي يُبَيِّنُ شَرَفَهُ احْتِيَاجُ جَمِيعِ الْمُشْتَغِلِينَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، مِنْ نَحْوِيٍّ وَلُغَوِيٍّ، إِلَيْهِ أَيَّمَا حَاجَةٍ، لِأَنَّهُ مِيزَانُ الْعَرَبِيَّةِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ يُؤْخَذُ جُزءٌ كَبِيرٌ مِنَ اللُّغَةِ بِالْقِيَاسِ، وَلَا يُوصَلُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّصْرِيفِ، نَحْوَ قَوْلِهِمْ: "كُلُّ اسْمٍ فِي أَوَّلِهِ مِيمٌ زَائِدَةٌ مِمَّا يُعْمَلُ بِهِ وَيُنْقَلُ فَهُوَ مَكْسُورُ الْأَوَّلِ، نَحْوَ: مِطْرَقَة وَمِرْوَحَة، إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ"، فَهَذَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْمِيمَ زَائِدَةٌ، وَلَا يُعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ جِهَةِ التَّصْرِيفِ»[2].

[1] ـ المصدر نفسه، ج1، ص: 22.
[2] ـ ابن عصفور، الممتع في التّصريف، ج1، ص: 27.

وكما أن علم التّصريف أشرف شطري العربيّة، فهو غامض في بعض أوزانه، ممّا يجعل المتكلّم يقع في بعض المعاني التي لا يقصدها، وفي ذلك يقول:

«وَالذِي يَدُلُّ عَلَى غُمُوضِهِ، كَثْرَةُ مَا يُوجَدُ مِنَ السَّقَطَاتِ فِيهِ، لِجِلَّةِ الْعُلَمَاءِ؛ أَلَا تَرَى مَا يُحْكَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، مِنْ أَنَّهُ قَالَ فِي "مَنْدُوحَة" مِنْ قَوْلِكَ: "مَالِي عَنْهُ مَنْدُوحَةٌ"، أَيْ مُتَّسَعٌ: إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنِ "انْدَاحَ". وَذَلِكَ فَاسِدٌ، لِأَنَّ "انْدَاحَ": "انْفَعَلَ" وَنُونُهُ زَائِدَةٌ. وَمَنْدُوحَةُ: "مَفْعُولَة"، وَنُونُهُ أَصْلِيَّةٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ زَائِدَةً، لَكَانَتْ "منْفُعْلَة"، وَهُوَ بِنَاءٌ لَمْ يَثْبُتْ فِي كَلَامِهِمْ، فَهُوَ، عَلَى هَذَا، مُشْتَقٌّ مِنَ "النَّدْحِ"، وَهُوَ جَانِبُ الجَبَلِ وَطَرَفُهُ، وَهُوَ إِلَى السَّعَةِ ...»[1]

المبحث الخامس: ابن مالك الأندلسيّ

يعتبر أبو عبد الله جمال الدّين محمّد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطّائيّ الجيّانيّ الشّافعيّ النّحويّ المولود سنة ستّمائة، من علماء النّحو الأندلسيّين، الذين هاجروا إلى بلاد المشرق واستقرّوا بها، وقد كان معاصرًا لابن عصفور، وقد لُقّب بإمام النّحاة وحافظ اللّغة.

«قال الذّهبيّ: ولد سنة ستّمائةٍ، أو إحدى وستّمائةٍ، وسمع بدمشق من السّخاويّ، والحسن بن الصّباح، وجماعة. وأخذ العربيّة عن غير واحد، وجالس بِحَلَبَ ابن عمرونٍ وغيره، وتصدّر بها لإقراء العربيّة، وصرف همّته إلى إتقان لسان العرب؛ حتّى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السّبق، وأربى على المتقدّمين. وكان إمامًا في القراءات وعِللها. وأمّا اللّغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها، والاطّلاع على وحشيّها. وأمّا النّحو والتّصريف فكان فيهما بحرًا لا يُجارى، وحَبرًا لا يُبارى»[2]

فابن مالكٍ كان ملمًّا بالقراءات، وعلوم اللّغة المختلفة، ممّا أهّله للإقراء، وذلك بعد تتلمذه على مشايخ الشّام، وغيرها من بلدان المشرق العربيّ، فضلًا عن شغفه بكلام العرب، وحفظ غريبه، من هنا يمكن القول إنّه ذا دراية واسعة.

[1] - المصدر نفسه، ج1، ص: 29.
[2] - السّيوطيّ، بغية الوعاة، ج1، ص: 130.

«وقد ولي ابن مالكٍ عدّة مناصب مختلفة، تولّى فيها تعليم العربيّة، ففي حلبٍ كان إمام المدرسة السّلطانيّة، وفي حَماة تصدّر مدّة، وفي دمشق تولّى مشيخة العادليّة الكبرى، التي من شرطها القراءات والعربيّة. وقد لفتت مكانة ابن مالكٍ في العربيّة أنظار الدّارسين، فقد كان رحمه الله أسطع نجم لمع في سماء العلم في القرن السّابع الهجريّ. وقد وصلت مكانته في نفوس معاصريه، أنّ شمس الدّين بن خلّكان، قاضي القضاة، كان إذا صلّى ابن مالكٍ في العادليّة – وكان إمامها – يشيّعه تعظيماً له»[1]

1 - استشهاده بالحديث الشّريف

من المعلوم أن النّحاة الأوائل من البصريّين خاصّة، كانوا لا يستشهدون بالحديث الشّريف، وذلك داخل في صميم تشدّدهم، وحرصهم على سلامة اللّغة، والسّبب راجع إلى أنّ الأحاديث الشّريفة، منقولة في أغلبها بالرّواية، ورواتها يختلفون فيما يروون.

وعلى العموم فإنّ «الاستشهاد بالحديث الشّريف لم يكن موضع اتّفاقٍ بين النّحاة، فأبو الحسن ابن الضّائع، وأبو حيّان، ذهبا إلى أنّ الاحتجاج بالحديث في الدّراسات النّحويّة واللّغويّة لا يجوز. قال ابن الضّائع – في شرح الجُمل -: "تجويز الرّواية بالمعنى هو السّبب عندي في ترك الأئمّة – كسيبويه وغيره – الاستشهاد على إثبات اللّغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن، وصريح النّقل عن العرب، ولولا تصريح العلماء بجواز النّقل بالمعنى في الحديث، لكان الأولى - في إثبات فصيح اللّغة -، كلام النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم-، لأنّه أفصح العرب»[2].

وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ الأحاديث النّبويّة الشّريفة، وإن كانت منقولة عن طريق الرّواية الشّفويّة، فإنّ العلماء قد قاموا بتمحيصها، وتصنيفها، إلى صحيحة، وحسنة، ومرسلة، وضعيفة، من هنا يمكن القول إن الأحكام التي تجري على الشّعر العربيّ، هي نفسها التي تجري على الأحاديث النّبويّة الشّريفة، وذلك قصد معرفة أيٍّ منها يمكن الاستشهاد به، وأيها يجب تركه، وعلى كلٍّ فإنّ ابن مالك كان من المستشهدين بالحديث:

[1] - سالم مكرم، عبد العال، القرآن الكريم، وأثره في الدّراسات النّحويّة، ص: 191.
[2] - سالم مكرم، عبد العال، المرجع السّابق، ص: 344.

فقد «كان أمّة – لا في الاطّلاع على كتب النّحاة وآرائهم فقط – بل أيضًا في اللّغة، وأشعار العرب، التي يستشهد بها في النّحو، وكذلك كان أمّة في القراءات، ورواية الحديث النّبويّ. وجعله ذلك يُكثر من الاستشهاد بالقرآن في مصنّفاته، فإن لم يكن فيها الشّاهد عَدَلَ إلى الحديث، فإن لم يجد فيه ما يريده من الشّواهد عدل إلى أشعار العرب. وهو يُعدّ أوّل من استكثر من رواية الحديث في النّحو»

2 - منظوماته النّحويّة

ممّا يميّز ابن مالك عن غيره من النّحاة العرب، سعة اطّلاعه، وحفظه لكلام العرب وغريبه، ووحشيّه، إضافة إلى حفظه للأشعار، كلّ ذلك أهّله ليكون ناظمًا، بمعنى أنّه كان ينظم شعرًا يتضمّن المسائل النّحويّة المختلفة، وقد ترك في ذلك عدّة "متونٍ" نحويّة، وذلك حتّى يسهل حفظها على طلبة العلم، «منها ألفيته المشهورة، وهي في ألف بيتٍ، والكافية الشّافية، وهي في ثلاثة آلاف بيت، ومنها المؤصّل في نظم المفصّل للزّمخشريّ، وتحفة المودود في المقصور والممدود، وخلّف مصنّفات كثيرة في العربيّة، منها شرح الكافية، والتّسهيل وشرحه، وشرح الجزوليّة، وإعراب مشكل صحيح البخاري، وعمدة الحافظ وعدّة اللّافظ وشرحه، وإيجاز التّعريف في علم التّصريف، والمقدّمة الأسدية، صنّفها لابنه تقيّ الدّين الأسد»[1].

ومن نظمه الألفية المشهورة في النّحو، والتي منها: باب **المعرب والمبنيّ**[2]

والْإِسْمُ مِنْهُ مُعْرَبٌ وَمَبْنِي لِشَبَهٍ مِنَ الْحُرُوفِ مُدْنِي

كَالشَّبَهِ الْوَضْعِيِّ فِي اسْمَيْ جِئْتَنَا وَالْمَعْنَوِيِّ فِي مَتَى وَفِي هُنَا

وَكَنِيَابَةٍ عَنِ الْفِعْلِ بِلَا تَأَثُّرٍ وَكَافْتِقَارٍ أُصِّلَا

وَمُعْرَبُ الْأَسْمَاءِ مَا قَدْ سَلِمَا مِنْ شَبَهِ الْحَرْفِ كَأَرْضٍ وَسُمَا

وَفِعْلِ أَمْرٍ وَمُضِيٍّ بُنِيَا وَأَعْرَبُوا مُضَارِعًا إِنْ عَرِبَا

[1] - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص: 310.

[2] - ابن مالك، محمّد بن عبد الله، متن الألفيّة، المطبعة الشّعبيّة، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 3.

مِنْنُونِ تَوْكِيدٍ مُبَاشِرٍ وَمِنْ نُونِ إِنَاثٍ كَيَرُعْنَ مَنْ فُتِنْ

خـاتـمــة

وفي ختام هذا البحث، يمكننا الخروج ببعض النّتائج، والملاحظات المتعلّقة بالدّرس النّحويّ في الأندلس، ويمكن إجمالها في النّقاط التّالية:

- ظهرت بوادر النّشأة بالنّسبة للمدرسة النّحويّة في الأندلس، منذ بداية القرن الثّاني للهجرة، وذلك من خلال جهود طبقة "المؤدّبين"، الذين كانوا يعلّمون "الصّبيان" مبادئ العربيّة، الفقه، والحديث، وغيرها من العلوم الضّروريّة.
- اتخذ "المؤدّبون" التّعليم كحرفة، يتقاضون عليها "أجراً"، عُرف باسم "الحذقة"، كلّما حذق واحدٌ من تلامذتهم
- كما كانوا يعتمدون – في ذلك – على الكتب القادمة من المشرق، وليس الأمر غريباً مادامت أركان الدّولة لم تتوطّد بعد.
- كان الحكّام في الأندلس من أكبر المشجّعين على الحياة الثّقافية في ربوع الأندلس، ممّا جعل النّاس يقبلون على التّعلّم واستنساخ الكتب، وفهرستها، وقد ظهرت بفضل ذلك مكتباتٌ متعدّدة في مختلف الحواضر كقرطبة، والزّهراء، والزّاهرة، وإشبيلية، وغيرها.
- يعتبر "الحَكَم المستنصر" من أشهر الحكّام الأمويّين، الذين شجّعوا على جلب الكتب، من بلاد المسلمين وغير بلاد المسلمين، وترجمتها، وفهرستها، من خلال إنشائه للمكتبة الأمويّة بقرطبة، وقد بعث في طلب كتاب "الأغانيّ" من صاحبه "أبي الفرج الأصفهاني"، حيث ظهرت نسخته بالأندلس، قبل ظهورها بالمشرق.
- انتعشت الحركة النّحويّة في الأندلس بفضل تلك الرّحلات التي كان يقوم بها المؤدّبون إلى المشرق، قبل العودة، وتدريس كتب البصريّين والكوفيّين، مثل كتاب سيبويه، والكسائيّ، والفرّاء، وغيرهم.
- وعلى العكس من ذلك، فقد نشطت الحركة النّحويّة عبر رحلات المشارقة نحو بلاد الأندلس، ومن أمثلة ذلك، قدوم أبي عليّ القالي البغدادي، في زمن عبد الرّحمن النّاصر، واستقراره بقرطبة، يؤلّف ويدرّس الطّلبة، وذلك بتشجيع من

النّاصر وابنه المستنصر، ومن أشهر كتبه: الأماليّ، والنّوادر، والبارع في اللّغة.

- يمكن القول، إنّ دوافع التّاليف النّحويّ في الأندلس هي نفسها الدّوافع التي أدّت بالبصريّين والكوفيّين والبغداديّين والمصريّين إلى التّأليف والتّصنيف النّحويّ.
- حيث كان الدّافع المشترك هو الحفاظ على اللّغة العربيّة من اللّحن والخطأ، إضافة إلى محاولة إثبات الذّات، والاستقلاليّة، ذلك أنّ الأندلسيّين أسّسوا لمدرسة نحويّة لها آراؤها الخاصّة بها.
- كان اعتماد النّحاة الأندلسيّين على آراء الكوفيّين، حيث اتّفقوا معهم في بعض المسائل، ولعلّ من أسباب ذلك، يسر تلك الآراء، وبعدها عن التّعقيد، خلافاً لأصحاب المذهب البصريّ، الذين اعتمدوا على التّأويل والقياس.
- ورغم ذلك، فإنّ الأندلسيّين قد اهتمّوا بـ"كتاب سيبويه"، حيث كان المؤدّبون يروون بعض مسائله، بل كان هناك من عُرف بحفظه، مثل "حمدون النّحويّ"، وقد دارت حوله العديد من المناقشات في المجالس، فضلاً عن ظهور بعض شروحه بالأندلس.
- من أشهر شروح الكتاب بالأندلس: شرح "أحمد بن أبان اللّغوي الأندلسيّ"، وشرح ابن الباذش، و"الخشنيّ"، و"ابن خروفٍ الإشبيليّ"، و"الصّفّار"، و"أبي عليّ الشّلوبين"، و"أبي حيّان الغرناطيّ"، وغيرهم.
- إلى جانب ذلك، ظهرت شروح لشواهد الكتاب، وهي شروح تعنى بالأبيات التي ذكرها سيبويه، إضافة إلى النُّكت والتّعليقات، والاستدراكات، ولعلّ من أشهر الاستدراكات كتاب أبي بكرٍ الزّبيديّ، صاحب الطّبقات.
- يعتبر "الأعلم الشّنتمريّ" من أبرز النّحاة الأندلسيّين، الذين شُغفوا بالعِلل الثّوانيّ والثّوالث، وهو من شُرّاح الكتاب، إذ نجد له مؤلّفين، أحدهما في شرح الكتاب، سمّاه: "النُّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفيّ من لفظه، وشرح أبياته وغريبه"، والثّاني في شرح شواهده، وعنوانه: " تحصيل عين الذّهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب ".

- يعتبر ابن مضاء القرطبيّ من أشهر نحاة الأندلس، في عصر الموحّدين، ذلك أنّه تبنّى موقفهم الظّاهريّ، الدّاعي إلى رفض كتب المذاهب الأربعة، وهو مذهب ظهر ببغداد، وكان من أشهر أعلامه بالأندلس، الفقيه "ابن حزم".
- يعتبر كتاب "الرّدّ على النّحاة" لابن مضاء نموذجاً ظاهريّاً، حاول - من خلاله – الثّورة على النّحو البصريّ، وذلك بالدّعوة إلى إلغاء العلل الثّوانيّ والثّوالث، إضافة إلى ضرورة التخلّي عن العامل النّحويّ والقياس، وغير ذلك من المسائل، التي رأى ابن مضاء أنّها لا تفيد النّحويّ في شيء، غير التّعقيد، والخروج عن ظواهر النّصوص.
- عاش "ابن عصفور" في القرن السابع الهجري، وقد تبنّى أغلب آراء المذهب البصريّ، ومن أشهر كتبه "المقرّب ومُثُل المقرّب"، هذا الأخير الذي قوبل ببعض الرّدود، التي حطّت من قيمته.
- اهتمّ "ابن عصفور" بالتّصريف، وذلك في كتابه "الممتع في التّصريف".
- يعتبر "ابن مالك الطّائيّ الجيّانيّ الشّافعيّ النّحويّ"، من علماء النّحو الأندلسيّين، الذين هاجروا إلى بلاد المشرق واستقرّوا بها، وقد كان معاصرًا "لابن عصفور"، وقد لُقّب بإمام النّحاة وحافظ اللّغة. وله عدّة منظومات نحويّة.
- وفي الختام، نتمنّى أن نكون قد وُفّقنا في هذه الدّراسة المتواضعة، التي حاولنا - من خلالها – الوقوف على سمات وخصائص المدرسة النّحويّة بالأندلس، تلك المدرسة التي لم تنقطع صلاتها بسائر المدارس النّحويّة المعروفة.

والحمد لله ربّ العالمين

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر

1 - الأخطل، الدّيوان، شرح: مهدي محمّد ناصر الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1994.

2 - الأزهريّ، أبو منصور محمّد بن أحمد، تهذيب اللّغة، تح: عبد الله دردبش، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، د.ط، د.ت.

3 - ابن الأنباريّ، أبو البركات، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السّامرّائيّ، مكتبة المنار، الزّرقاء، ط3، 1985.

4 - ابن جنّيّ، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمّد علي النّجّار، المكتبة العلميّة، د.ط، د.ت، ج2.

5 - ابن خروف: تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب، تح: خليفة محمّد بديري، ، منشورات كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة.

6 - ابن عصفور الإشبيليّ، المقرّب ومعه مُثُلُ المقرّب، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعليّ محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت.

7 - ابن عصفور، الممتع في التّصريف، تح: فخر الدّين قباوة، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1987.

8 - ابن مالك، محمّد بن عبد الله، متن الألفيّة، المطبعة الشّعبيّة، بيروت، د.ط، د.ت.

9 - ابن مضاء القرطبيّ، الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط1، 1948.

10 - الجرجانيّ، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004.

11 – الحمويّ، ياقوت، معجم الأدباء، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1993، ج1.

12 - الحُمَيديّ، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تح: إبراهيم الأبياريّ، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ج2.

13 - الرّازيّ، محمّد بن أبي بكر، مختار الصّحاح، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، 1986.

14 - الزّبيديّ، أبو بكر، طبقات النّحويّين واللّغويّين، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2.

15 – الزّبيديّ، أبو بكر، لحن العوامّ، تح: رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2000.

16 - سيبويه، الكتاب، تح: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

17 - السّيرافيّ، الحسن بن عبد الله، أخبار النّحويّين البصريّين، تح: طه محمّد الزّينيّ، محمّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1955.

18 - السّيوطيّ، جلال الدّين عبد الرّحمن، بغية الوعاة في تراجم اللّغويّين والنّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، 1965.

19 - الشّنتمريّ، الأعلم، أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين، تح: محمّد عبد المنعم خفاجيّ، ط3، 1963، ج1.

20 - الشّنتمريّ، أبو الحجّاج يوسف، الأعلم، تحصيل عين الذّهب من معدن جوهر الأدب، في علم مجازات العرب، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، د.ط، د.ت.

21 - الشّنتمريّ، الأعلم، النّكت في تفسير كتاب سيبويه، وتبيين الخفيّ من لفظه، وشرح أبياته وغريبه، تح: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، 1999، ج1.

22 - الشّنتيريّ، ابن بسّام، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، 1997.

23 - العسكريّ، أبو أحمد الحسن بن عبد الله، المصون في الأدب، تح: عبد السّلام محمّد هارون، سلسلة التّراث العربيّ، ع3، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1994.

24 - القاليّ، أبو عليّ، إسماعيل بن القاسم، كتاب الأمالي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1975، ج1.

25 - القفطيّ، أبو الحسن عليّ بن يوسف، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، القاهرة، مؤسّسة الكتاب الثّقافيّ، بيروت.

26 - لبيد بن ربيعة العامريّ، الدّيوان، شرح الطّوسيّ، تق: حنّا ناصر الحتّي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط1، 1993.

27 - اللغويّ، أبو الطّيب، مراتب النّحويّين، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة، دط، د.ت.

28 - المقّريّ، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت.

المـراجع

1 - ألبير حبيب، الحركة اللّغويّة في الأندلس، منذ الفتح العربيّ، حتّى نهاية عصر ملوك الطّوائف، الجامعة الأميركيّة، بيروت، أيّار 1965.

2 - إحسان، عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر سيادة قرطبة، دار الثّقافة، بيروت، ط2، 1969.

3 - إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسيّ، عصر الطّوائف والمرابطين، دار الشّروق، عمّان، الإصدار الأول، 1997.

4 - أحمد مختار عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، مع دراسةٍ لقضيّة التّأثير والتّأثّر، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988.

5 - الحديثيّ، خديجة، المدارس النّحويّة، دار الأمل، إربد، الأردن، ط3، 2001.

6 - الحديثيّ، خديجة، كتاب سيبويه وشروحه، مطابع دار التّضامن، بغداد، ط1، 1967.

7 - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرّشاد، مكتبة الأسرة، طبعة خاصّة.

8 - حفيظة، يحياويّ، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدّرس النّحويّ العربيّ، خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريّين، مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، جامعة مولود معمّري، تيزي وزو، 2011.

9 - خالد عبد الكريم جمعة، شواهد الشّعر في الكتاب، الدّار الشّرقية للطّباعة والنّشر والتّوزيع، مصر الجديدة، ط2، 1989.

10 - درين، محمّد بن عمّار، تأثير الكوفيّين في نحاة الأندلس، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض.

11 - الدّنّاع، محمّد خليفة، المختار من شرحَيْ ابن خروفٍ والصّفّار لكتاب سيبويه، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط1، 1996.

12 - الرّافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ط، د.ت، ج2.

13 - سالم مكرم، عبد العال، القرآن الكريم وأثره في الدّراسات النّحويّة، المكتبة الأزهريّة للتّراث، د.ط، د.ت.

14 - السّرجانيّ، راغب، قصّة الأندلس، من الفتح إلى السّقوط، مؤسّسة إقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1، 2011.

15 - السّنجرجيّ، مصطفى عبد العزيز، المذاهب النّحويّة، في ضوء الدّراسات اللّغويّة الحديثة، المكتبة الفيصليّة، ط1، 1986.

16 - شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت.

17 - الطّنطاويّ، أحمد، نشأة النّحو، وتاريخ أشهر النّحاة، دار المعارف، ط2، د.ت.

18 - عبده الرّاجحي، دروسٌ في كتب النّحو، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، 1975.

19 - فادي صقر أحمد عصيدة، جهود نحاة الأندلس، في تيسير النّحو العربي، إشراف، وائل أبو صالح، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين (ماجستير)، 2006م.

20 - القوزيّ، عوض أحمد، المصطلح النّحوي، نشأته وتطوّره، حتّى أواخر القرن الثّالث الهجريّ، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرّياض، ط1، 1981.

21 - محمّد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأوّل، القسم الأوّل، من الفتح إلى بداية عهد النّاصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997.

22 - محمّد عيد، أصول النّحو العربيّ، في نظر النّحاة، ورأي ابن مضاء، وضوء علم اللّغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1989

23 - مصطفى عليان عبد الرّحيم، تيّارات النّقد الأدبيّ في الأندلس، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1984.

24 - الهيتيّ، عبد القادر رحيم، خصائص مذهب الأندلس النّحويّ خلال القرن السّابع الهجريّ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط2، 1993.

25 - يوسف عيد، النّشاط المعجميّ في الأندلس، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.

فهرس
الموضوعات

الموضـــــــــــــــــــــــــــــــــــوع
الصفحة

البسملة

الإهداء

التشكرات

مقدمة

مدخل .... [1 – 15]

نشأة النّحو العربيّ 7

النّحو في البصرة 11

الفصل الأول: المدرسة الأندلسيّة: نشأتها وخصائصها [16 – 47]

توطئة 17

أوّلاً: نشأة المدرسة النّحويّة في الأندلس 18

1 – طبقة المؤدّبين 18

2 – تشجيع الحكّام 22

3 – رحلات الأندلسيّين إلى المشرق 28

4 – رحلات المشارقة إلى الأندلس 32

5 - المناظرات 36

ثانياً: دوافع التّاليف النّحويّ في الأندلس 37

1 – ظهور اللّحن 38

2 – الرّدّ على المشارقة 40

3 – شرح الكتب وتبسيطها 41

ثالثاً: المدرسة الكوفيّة، وأثرها في النّحو الأندلسيّ .....
43

1 – كثرة الرّواية عن العرب 44

2 – الابتعاد عن التّأويل 45

3 – الجمع بين النّحو، وغيره من الفنون 46

الفصل الثاني: من أعلام المدرسة النّحويّة الأندلسيّة [48 – 85]

المبحث الأوّل: شروح الكتاب وشواهده، في الأندلس 50

أوّلاً: الشّروح: 51

ثانياً: شروح الشّواهد 56

ثالثا: النّكت، والتّعليقات 58

رابعاً: الاستدراكات: 59

المبحث الثّاني: شرح الأعلم الشّنتمريّ للكتاب، وشواهده 60

أوّلاً : النّكت في تفسير كتاب سيبويه 61

ثانياً: تحصيل عين الذّهب، من معدن جوهر الأدب .....
62

المبحث الثّالث: ابن مضاء، وثورته على النّحاة 66

1 – ترجمته 66

2 – كتاب "الرّدّ على النّحاة" 68

المبحث الرّابع : ابن عصفورٍ الإشبيليّ 76

1 - ترجمته 76

2 – ابن عصفورٍ، والمذهب البصريّ 78

3 - كتاب المقرّب 79

4 - عنايته بالتّصريف 81

5 – مقدّمة كتاب "الممتع" 82

المبحث الخامس: ابن مالك الأندلسيّ 83

1 – استشهاده بالحديث الشّريف 84

2 – منظوماته النّحويّة 85

خاتمة 86

قائمة المصادر والمراجع 91

فهرس الموضوعات 97